



---

# فهم الأقدار

---

من القصص القرآني



أسماء عثمان الشرقاوي

## مقدمة

ليس أصعب ما يواجه الإنسان في حياته هو القدر ذاته، بل صعوبة فهمه، أو العجز عن حسن استقباله. كم من أقدارٍ نزلت بنا، فكسرت فينا طمأنينة، لا لأنها شرٌّ محض، ولكن لأننا استقبلناها بقلوبٍ لم تكن مهيأة للفهم، ولا مهيأة للرضا. هذا الكتاب لا يحاول أن يقدم إجاباتٍ جاهزة لكل سؤال،

ولا يدعي امتلاك تفسيرٍ كامل لكل ابتلاء،

لكنه محاولة هادئة لإعادة ترتيب علاقتنا مع أقدار الله،

بعيدًا عن السخط، وبعيدًا عن التسليم السلبي الذي يخلو من الفهم.

سنحاول أن ننظر إلى الأقدار كما أرادها الله:

امتحانًا لا حكمًا نهائيًا، وطريقًا لا نهاية، ورسالةً تحتاج قلبًا واعيًا أكثر مما تحتاج عقلًا مجردًا.

لماذا نحتاج إلى فهم الأقدار؟

لأن الإنسان خلق بقلبٍ يتألم، وعقلٍ يتساءل، ونفسٍ لا تطمئن إلا إذا فهمت أو اطمأنت.

وحيث ينزل القدر، لا يكون السؤال الأول: كيف حدث؟

بل: لماذا حدث لي أنا؟

وهنا يبدأ الامتحان الحقيقي. فالأقدار لا تُعَبنا بوقوعها فقط، بل تُعَبنا أكثر حين نقف أمامها دون فهم، ودون ميزانٍ نزن به ما نمرّ به .

كم من إنسانٍ سَلَّم بقدر الله لفظًا، لكنه عاش ساخطًا لأنه لم يُدرك أن الإيمان بالقدر ليس استسلامًا أعمى، ولا تعطيلًا للعقل، ولا إنكارًا للألم.

فهم الأقدار لا يعني أن نُفسر كل شيء، ولا أن نعرف الحكمة كاملة، بل يعني أن نعرف كيف نتعامل مع ما لا نفهمه. أن ندرك أن: الله حكيم، وإن خفيت الحكمة، الله رحيم، وإن اشتدَّ الابتلاء، الله عادل، وإن تأخر العدل في أعيننا.

وحيث يغيب هذا الفهم، يتحوّل الابتلاء من وسيلة قُرب إلى سبب اعتراض، ومن باب أجر إلى باب حزنٍ دائم. لهذا نحتاج إلى فهم الأقدار، لا لرفع الألم، بل لمنعنا من كسر قلوبنا.

ولا لنلغي الأسئلة، بل لنحسن توجيهها، ولا لنطلب الراحة، بل لنطلب الطمأنينة.

وإن من أكثر الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أن يتعامل مع القدر وكأنه النتيجة النهائية، لا مرحلة من مراحل الامتحان. فحين يمرض، يظن أن المرض علامة خذلان، وحين يُجرم، يظن أن الحرمان نهاية الطريق، وحين يُؤذى، يظن أن الظلم هو الكلمة الأخيرة.

لكن الحقيقة أن الأقدار لا تُخبرنا بما نحن عليه عند الله، بل تكشف لنا كيف نتعامل مع ما يقدره لنا .

قد يمرّ شخصان بالابتلاء نفسه؛ يفقدان العمل في التوقيت ذاته، ويدوقان القلق ذاته، لكن أحدهما يستقبل القدر بالرضا والسعي، والآخر يستقبله بالسخط والتوقف.

الحدث واحد، لكن النتيجة مختلفة، لأن الامتحان لم يكن في الفقد، بل في طريقة التعامل معه. فالامتحان لا يكون في النعمة وحدها، ولا في الشدة وحدها، بل في طريقة الاستقبال في الحالتين.

قد تكون النعمة امتحاناً أشد من المصيبة، وقد يكون البلاء باب رفعة لا باب عقوبة، وقد يكون الصبر في موضع أقرب إلى الله من الفرح في موضع آخر.

في كتابي الأول

## فهم الأقدار

### "نور للقلب والعقل"

حرصت على توضيح أهم الأفكار الخاصة بفهم أقدار الله تعالى التي نعيشها يومياً في حياتنا وواقعنا، فالأقدار هي كل الأحداث اليومية التي نعيشها، لذلك لا بد من فهم حكمة الله تعالى من أقداره كي نحسن استقبالها فنحيا أطيب حياة في الدنيا والآخرة. وهذا ملخص لأهم الأفكار التي وردت بالجزء الأول:

نبدأ بأنه من حق كل إنسان أن يسأل ويتسأل عما لا يتضح له في دينه، فلا عبادة ولا حب ولا تعظيم لله تعالى بدون وعي وفهم وتفكير فيما أمر به وفيما قدره، وهذا الكتاب محاولة للإجابة على تساؤلات، ليه حصل كده؟ واشمعى أنا؟ وإزاي أبقى مصلى ومتقى وأخسر الخسارة دى؟ وإزاي ده ميعرفش ربنا ويكسب كل المكاسب دى؟؟ وهكذا كل الأسئلة من هذه النوعية التي ترد في أذهاننا جميعاً ولا نجد لها إجابة شافية.

رب العالمين أجاب على كل هذه الأسئلة بكتابه الحكيم، إنه سبحانه خلق الموت والحياة ليلبونا أينا أحسن عملاً، كل ما نمر به من نعم وشدائد هي ورقة الامتحان وليست نتيجة الامتحان، فنتيجة الامتحان هي ما نكتبها بأنفسنا عندما نستقبل هذه الامتحانات ونجيب عليها، فالشدة ليست لأنني سيئ وربنا غضبان علي، وعطاءات الدنيا ليست لأنني مُكرم عند ربنا وهو راضي عني.

إنما الشدة امتحان وابتلاء يأتي للطيب والعاصي والكافر والمنافق، كيفية استقبالها هو التي يحدد مكانتي عند رب العالمين، والنعمة امتحان وابتلاء يأتي للطيب والعاصي والكافر والمنافق، كيفية استقبالها هو الذي يحدد مكانتي عند رب العالمين، وقد بين لنا بالقرآن الكريم صور مختلفة للنجاح في استقبال أقداره وصور أخرى للسقوط فيها، قدمنا منها أمثلة لتكون لنا نبهاً في حياتنا اليومية يمكننا من خلالها ضبط سلوكياتنا واستقبالنا لأقداره كما يجب ويرضى.

وإن مما يعيننا على تقبل أقدار الله تعالى وحسن التعامل معها، أن نتعرف إليه ونوقن أنه الرب العدل الرحمن الرحيم العليم الحكيم، فلا يمكن أن تحب وتثق فحين لا تعرفه.

ومن الأمثلة التي ذكرها رب العالمين لأقداره بكتابه ودرسناها بالجزء الأول:

- ١) أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان الصبر
  - ٢) أقدار الله تعالى بالشدائد للعصاة من المؤمنين لامتحان التوبة
  - ٣) أقدار الله تعالى بالنعم لامتحان الشكر
  - ٤) أقدار الله تعالى بالتمكين لامتحان التقوى
  - ٥) أقدار الله تعالى بالشدائد لامتحان اليقين برحمته
  - ٦) أقدار الله تعالى بالتفاوت في درجات الدنيا لامتحان العدل والرحمة
  - ٧) أقدار الله تعالى بالنعم والشدائد للفاسقين لامتحان التوبة والتضرع
  - ٨) أقدار الله تعالى بالإيذاء البدني والنفسي لامتحان الصبر والتقوى
  - ٩) أقدار الله تعالى بالتعامل بين الناس لامتحان الصبر.
- ومما يعين على حسن استقبال أقدار الله تعالى عدة نقاط يجب أن نتذكرها ونقوم بها:
- أولاً: ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن قبل وقوع أقدار الله تعالى

١. العلم

٢. الاستقامة

٣. تذكر نعم الله تعالى

٤. حسن الظن بالله تعالى

ثانياً: ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن بعد وقوع أقدار الله تعالى

١. مراجعة الأسباب

٢. عدم التحسر والندم

٣. الصبر والشكر

٤. التضرع والاستكانة والدعاء.

ثم نصل في الكتاب إلى الرد على هذا التساؤل، متى يكون الابتلاء نعمة ومتى يكون نقمة؟

إن الابتلاء ذاته سواء كان المرض مثلاً أو الصحة، أو كان الفقر أو الغنى، هو نفسه قد يكون على هذا نعمة، وعلى آخر نقمة، قد ينبج عنه رضى الله تعالى ورفع الدرجات، وقد ينبج عنه عند الآخر غضب الله تعالى، تبعاً لصورة استقبال البلاء، فليس ابتلاء المرض بالضرورة رفع درجات، إنه نعمة ورفع درجات إن أحسن الإنسان استقباله، ونقمة إن أساء استقباله. وابتلاء الغنى قد يكون نقمة إن أساء الإنسان استقباله، ونعمة إن أحسن استقباله.

لنصل إلى آخر جزء وهو التعرف على الفوائد الخمس لتعلم وفهم أقدار الله تعالى:

أولاً: إحسان العبادة لله رب العالمين.

ثانياً: طهارة القلب.

ثالثاً: الرؤية السليمة لأحداث الحياة.

رابعاً: تدرأ عن المسلم سوء الظن بالله تعالى.

خامساً: العلم بأن أقدار الله امتحانات لا بد لها من استعداد.

لنختم الكتاب بعرض لبعض القصص التي وردت ببريد الأهرام للكاتب الخلق المحترم أ. عبد الوهاب مطاوع رحمه الله رحمة واسعة لنطبق عليها ما استعرضناه من أفهامنا لأقدار الله تعالى.

ننتقل للجزء الثاني من كتابي (فهم الأقدار) "من القصص القرآني" إن شاء الله سيتناول فهمنا لأقدار الله تعالى وصورة

استقبالها من خلال ما ذكره لنا رب العالمين من القصص الحق بالقرآن الكريم، ليعلمنا كيف هو الاستقبال الحسن والاستقبال السيئ لأقداره، فللابتلاء بالشدة أو بالنعمة استقبالٌ حسنٌ، يجعلنا نستفيد مما فيه من خيرات، وله استقبال سيئ يجعلنا نفقد خيراته ونسقط في امتحانه، وتكمن أهمية هذا الفهم في أن الاستقبال الحسن هو ما يؤدي للحياة الطيبة السعيدة في الدنيا قبل الآخرة، والاستقبال السيئ هو ما يؤدي للحياة التعيسة في الدنيا قبل الآخرة.

وسنبداً بقصة سيدنا يوسف عليه السلام، ومن خلال التدبر في أقدار الله تعالى، سنرى كيف واجه أقداره وهو ينتقل بين الحب، والعبودية، والسجن، دون أن يفقد يقينه بأن الله لطيفٌ بعباده وإن خفي اللطف في ظاهر الأحداث.

سیدنا یوسف علیہ السلام



صنعه، وعلما من خلال القصة صورة أحسن استقبال لأقداره، وشرح لنا حكمته من أقداره، وذلك حتى نقيس عليها الأحداث والأقدار التي تمر بيننا.

نبداً بشرح الظروف التي نشأ فيها سيدنا يوسف، لقد تمتع في صغره بحب أبيه الغامر له، قد يكون لأنه طفل صغير لأب كبير في السن. ولسيدنا يوسف إخوة أكبر منه سناً، في حالة غير شديدة من استئثاره بحب أبيهم، فدبروا مكيدة الخروج به، ثم تركوه في غيابة الجب لعل بعض المارين بهذا المكان يأخذوه، وهذا ما حدث وأخذته القافلة لمصر وباعوه لعزيز مصر، ويقال كأنه رئيس الوزراء، أو أحد كبار المسؤولين بالبلد.

يقول تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَفْعَلَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَنَا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾}.

قدّر ربنا لسيدنا يوسف أن ينتقل من الحرية إلى العبودية، (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ ..) تحول إلى بضاعة تُباع وتشتري، أول قدر سنقف عنده هو وصف رب العالمين لانتقال سيدنا يوسف لسبيل الأكرمين من حياة الحرية، حيث أهله ووطنه وأبوه الذي يحبه ويرعاه ويكرمه ويغدق عليه من الحب والحنان والرعاية الكثير، تحول من هذه الحياة الحرة الهانئة، إلى حياة العبودية التي تعنى حرمانه الكامل من وطنه وأهله وأبوه وأخوه، وتعنى الغربة والمهانة والمذلة، تعنى أنه لا رأي له في أي شأن من شؤونه ولا حرية له في اتخاذ أي قرار، وتعنى الطاعة العمياء للسيد، وتعنى عدم وجود أي حقوق له.

لماذا كل هذا الوصف لوضع سيدنا يوسف، حتى تزيد دهشتنا لما نجد ربّ العالمين يصف هذا الوضع المهين لسيدنا يوسف بأنه تمكين في الأرض، {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَفْعَلَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَنَا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ}، وكذلك، يعني بهذه الطريقة، بتحويله من حر إلى عبد، مَكَّنَّا له في الأرض، والتمكين يعني القدرة والسلطة والعزة، الإنسان المتمكن عنده سلطة ومال يمكنه من فعل ما يريد، ووضع سيدنا يوسف على العكس من ذلك تماماً، هو أصبح عبداً لا يملك سلطة ولا مالاً ولا قدرة على اتخاذ أي قرار، هو ملكٌ لسيدته يفعل به ما يشاء، كيف تكون العبودية تمكين!! كيف يأتي التمكين مع العبودية؟؟

شرح لنا ربنا في بقية الآية وقال: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ..}

ما معنى تأويل؟ تأويل الكلام: يعنى تفسيره وبيان معناه، وإعطاء معنى لحدث أو قول أو نص لا يبدو فيه المعنى واضحاً لأول وهلة، يعنى محاولة لفهم ما وراء الكلام من معاني، أما معنى أحاديث: فهى جمع حديث، والحديث هو كل ما يُتحدث به من كلام وخبر. فهذا المقطع من الآية يعنى أن ربنا جعل وجوده في قصر العزيز تمكين له، من أجل أن يتعلم فيه تأويل الأحاديث، فالابتلاء لم يكن نهاية الطريق، بل كان بداية لتعلم علم عظيم هيبته ليكون متمكناً في الأرض.

فما هى نوعية الأحاديث التي يمكن أن تدور في بيت رئيس الوزراء ويمكن لسيدنا يوسف أن يتعلمها؟ يمكننا أن نتصور أن شخصية مثل عزيز مصر حيث كانت مصر أكبر وأعظم حضارة في هذا العصر، يجتمع لديه الوزراء والعلماء والخبراء في كل التخصصات، وأن الأحاديث كانت هى أعلى وأرقى علوم في هذا العصر، ونحن نعلم الحضارة الفرعونية العظيمة، وما كان فيها من تقدم وعلوم لم يتوصل لها

حتى علماء عصرنا الحالي، فرب العالمين عز وجل وضع سيدنا يوسف في قصر العزيز ليفتح أمامه فرصة لتعلم أحدث وأعظم علوم عصره التي لم تكن لتتاح له لو ظل بيت أبيه.

فتعلم بذلك تأويل الأحاديث، أي تعلم العلم، وتعمق في فهمه إلى درجة أنه أصبح يفهم ما وراء الأخبار والأحداث، وما يجب عليه عمله بناءً عليها، وأحسن طريق لفعل كل ما هو صحيح، مثلما سنرى بعد ذلك.

لكن هنا ملحوظة سنقف عندها، وهي أن معظم كتب التفاسير فسرت تأويل الأحاديث على إنها تفسير الرؤى والمنامات، ولنعلمه من تأويل الأحاديث قالوا معناها ولنعلمه من علم تفسير الرؤى، لذلك سوف أعرض الأدلة التي اعتمدت عليها في تفسير (..وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ..) على إنها العلم الذي تلقاها بيت العزيز، والأدلة على أنه ليس معناها تفسير الرؤى.

**أولاً:** بتفسير السعدي يقول في هذه الآية: ولنعلمه من تأويل الأحاديث إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم، صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك. والله غالب على أمره أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فالدليل يجري منهم، ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك ..

**ثانياً:** بالنسبة للأدلة بداخل السورة التي تدل على إن (تأويل الأحاديث) ليست هي تفسير الأحلام والرؤى..

(١) الرؤى في القصة كلها دلت عليها كلمة الرؤى ولم يحدث أن قص أحد رؤية وعبر عنها بكلمة حديث أو أحاديث.. يقول تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخُوتِكَ..} لم يقل لا تقصص أحاديثك... ويقول تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾} قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾} قالوا هنا وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.. لم يقولوا وما نحن بتأويل الأحاديث بعالمين.. وفي آخر السورة يقول تعالى على لسان سيدنا يوسف: {وَرَفَعَ أَبْوَابِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا..} قال هذا تأويل رؤياي ولم يقل تأويل أحاديثي.

فالأحلام يتم التعبير عنها في السورة كلها بالرؤى.. ولم يحدث أن تم التعبير عنها بكلمة أحاديث. بذلك تصبح كلمة أحاديث تعنى المعنى المباشر لها وهو الكلام المتداول بين الناس، والكلام الذي كان متداولاً في قصر العزيز من خلال الوزراء والعلماء والخبراء، هو العلم العزيز والمتقدم في مختلف التخصصات والأفرع، والذي يثبت هذا المعنى ما قام به سيدنا يوسف مع الملك من تفسيره لرؤيته، كما أضاف إليها من علمه ما جعلها تخرج من مجرد رؤية وتفسير إلى خطة عمل شاملة منقذة للبلاد والعباد.

(٢) إن بعض المفسرين اعتمد من بين ما اعتمدوا في تفسير أن تأويل الأحاديث تعنى تفسير الرؤى على الآية الكريمة: **﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِّتُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾** ، يقال في تفسيرها: وكما أراك ربك هذه الرؤيا فكذلك يجتبيك ويصطفيك ويعلمك تفسير ما يراه الناس في منامهم من الرؤى مما تؤول إليه واقعاً.

فلو اعتمدنا على شرح (تأويل الأحاديث) على أنها تفسير المنامات على كلمة يجتبيك، فيجتبيك يعنى يختارك ويصطفيك، وفي التفاسير يقولون: "فكذلك يصطفيك ويعلمك تفسير ما يراه الناس في منامهم من الرؤى"، يعنى كأن الله تعالى اختاره واصطفاه ليعلمه علم تفسير الرؤى، بينما علم تفسير الرؤى علم يعلمه سيدنا يعقوب وأبنائه، فقد فسر سيدنا يعقوب رؤية سيدنا يوسف في أول السورة، وقال له لا تخبر بها إخوتك، لأنهم سوف يعرفون تفسيرها وقد يشكل هذا خطراً عليه، **﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾** فتفسير الرؤى ليس بأمر اختص الله تعالى به سيدنا يوسف، لكن ربنا ذكر تعليمه لتأويل الأحاديث لسيدنا يوسف على أنها أمر اختصه به، وبالتالي فإن علم تأويل الأحاديث هنا هو علم مختلف لم يتعلمه الآخرون، وبهذا الفهم لا يكون هو علم تأويل الأحلام، لأن علم تأويل الأحلام كان موجوداً عند سيدنا يعقوب وعند إخوة سيدنا يوسف.

كما أن الله تعالى يقول بهذه الآية **﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِّتُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾** رب العالمين بين أن نعمة تأويل الأحاديث نعمة قد أتمها عليه وعلى آل يعقوب، كما أتمها من قبل على أبويه إبراهيم وإسحاق، ولم يأت أن سيدنا إبراهيم ولا سيدنا إسحاق كان لديهم القدرة على تأويل المنامات، إنما ذكرهم في آية واحدة أخرى جمعت بينهم في صفات محددة، يقول تعالى: **﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾** ص. أولي الأيدي أي أولي القوة، والأبصار أي أنهم أصحاب بصيرة نافذة، جمعهم في هذه الآية كما جمعهم هم فقط في آية سيدنا يوسف، ليدلنا على أن نعمته سبحانه التي أتمها على سيدنا يوسف هي البصيرة النافذة التي تنتج عن العلم الغزير، كما قال من قبل في سيدنا إسحاق أنه غلام عليم..(..إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾) الحجرات.

(٣) ثالث دليل من السورة، السياق، فهم الآيات يتم من خلال السياق الذي أتت فيه الآية، يعنى نتفهم معنى الآية من خلال معاني الآيات التي قبلها والتي بعدها، وهنا سنتكلم عن معنى الآية التي جاءت بها الجملة التي نبحت معناها، يقول تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۗ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾**. هنا تأويل الأحاديث في سياق بعيد تماماً عن تفسير الأحلام، لكنها في إطار وجوده بيت الرجل الذي اشتراه، وهذا الرجل هو عزيز مصر، مكنته كبيرة بالدولة كأنه رئيس الوزراء، ورب العالمين ربط وجود سيدنا يوسف ببيت عزيز مصر بتمكينه وتعليمه تأويل الأحاديث، ولا يوجد بيت العزيز أي تعليم لتأويل الرؤى، لكن في بيته العلوم التي تناسب المسئول الكبير، علوم الفلك والزراعة والحساب والاقتصاد والبناء... وكل العلوم الخاصة بإدارة الدولة، فيصبح السياق

الذي أتت به هذه الجملة " وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " يشير بوضوح للعلوم التي كانت تبحث في بيت عزيز مصر الذي سكنه سيدنا يوسف.

بعد الانتهاء من تبيان تفسير تأويل الأحاديث، نعود للآية الكريمة ونرى تعقيب رب العالمين على تمكين سيدنا يوسف بقصر العزيز، يقول تعالى: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} لما قدر ربنا له أن يباع في مصر بثمن بخس دراهم معدودة، واشتراه عزيز مصر ليكون عبداً خادماً في بيته، سمي الله تعالى هذا التمكين، ثم وصف هذا التمكين بأنه يدل على أنه سبحانه له الغلبة وحده، وأوضح أن ما يريد هو ما يكون، مهما تأمر الناس على الإنسان ومهما عظم كيدهم، سيفعل الله ما يريد، وما يريد الله هو الخير المطلق لكل إنسان إذا أحسن استقبال أقدار الله تعالى، وسنرى هذه الغلبة مع تقدمنا في القصة.

وقال العلماء عن هذه الآية العظيمة: هذه القصة مضمونها كله حول التوحيد وقد جمع التوحيد كله في آية واحدة (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) تشمل هذه الآية العظيمة على العقيدة الصحيحة بأن مشيئة الله تعالى وحده بلا أي شريك هي النافذة على أي إنسان على وجه الأرض، هي النافذة مهما تأمر المتآمرون ودبروا المكائد فلو كتب لأى إنسان رزق معين من أمرٍ ما، مهما دبر الناس أن يحرموه من هذا الرزق لن تتم إرادتهم أبداً، ولن تكون إلا إرادة الله تعالى وأمره. ومهما دبروا أن يمنحوه رزقاً لم يرده الله تعالى له، لن يأخذه أبداً ولن تكون إلا إرادة الله تعالى، وإرادة الله هي الخير المطلق.

وهذا المعنى ذكره رسول الله عليه الصلاة والسلام في حديثه الشريف وهو ينصح سيدنا ابن عباس.. قال له: "وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ..." هذا بوضوح معنى أن الله غالب على أمره..

لكن رب العالمين يعقب فيقول: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) لا يعلمون أن الله هو وحده الغالب على أمره، هو وحده القادر على انفاذ ما يريد وقتما يريد وكيفما يريد، يظهر حملهم وعدم علمهم عند العمل وليس عند اللسان، فلو المقصود الكلام المنمق الجميل الذي يدعي الاعتقاد الجازم التام بأن لله الأمر كله، وأن ما يريد هو ما يتم ويحدث، وأن الكذب والمؤامرات لا تجدي، فسوف نجد منه الكثير جداً.

إن العلم بهذا القانون الإلهي يظهر ويتحقق عند العمل، عند تحري الحلال وتجنب الحرام، عند أداء الأمانات، عند قول الحق، عند التدبير والتخطيط، عند إقامة العدل، لكن لما يكون أكثر الناس يدبرون التدبير السيئ وكأنهم قادرين على أكل أموال الناس، أو قادرين على الحاق الأذى بفلان، أو يملكون قطع رزق هذا أو ذاك...، فهم لم يعلموا ولم يؤمنوا بأن الله غالب على أمره، ولم يؤمنوا أنه يعلم تمام العلم نواياهم وخططهم ومكائدهم، وقادر على أن يفشل كل مخططاتهم، إن عملهم هذا يظهر أنهم من أكثر الناس الذين لا يعلمون.

وأيضاً معنى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) لا يعلمون أن ما يريد الله هو ما يتحقق، مهما أحاطت بالإنسان ظروف محببة وسينة، فأكثر الناس عندما يقعون في مشكلة صعبة وتبدو كأنها لا حل، لا يعلمون أن الله تعالى هو من بيده الأمر كله، وأنه قادر على أن يخرجهم من هذه المشكلة إلى خير كبير، إن أحسنوا استقبال أقداره التي تبدو للوهلة الأولى أنها خسارة شديدة لهم. لو يعلم أكثر الناس هذا العلم لم يكونوا لبيأسوا ويكتئبوا وينغلقوا على أنفسهم، ويقضوا حياتهم في شكوى وسخط، لو يعلمون، كانوا استقبلوا قدر الله تعالى بالتعامل الصحيح مع الوضع القائم أيا كان هذا الوضع، فلو كان هناك مجال للعمل، يعملوا من جديد مهما كان هذا العمل، مجد واجتهاد وتقوى، ولو هناك مجال لتعلم العلم، يقبلوا عليه بمتهى الإصرار والدأب، لو يعلمون حقا، كانت قلوبهم ستكون مستقرة على اليقين بالله تعالى برحمته وحكمته وعلمه وقدرته، وكانوا سيحسنون التعامل مع أقداره ويكونوا من الفائزين. إذا الحكم الإلهي أو القانون الإلهي بأن الله غالب على أمره، مهما دبّر المدبّرون، ومهما كاد الكائدون، تعلمه وتوقن به قلة من الناس، يعلمونه ويطبّقونه في حركة حياتهم اليومية.

سنبدأ في عرض الامتحانات المتتالية التي تعرض لها سيدنا يوسف لئلا نرى كيف هو استقباله لأقدار الله تعالى.  
أول امتحان واجهه سيدنا يوسف وجوده كعبد بقصر العزيز:

تعامل مع قدر وجوده كعبد في قصر العزيز بأرقى وأنفع تعامل، لم ينكفئ على نفسه ويكتئب ويرثي لحاله، لكنه اجتهد وتعلم كل العلوم المتاحة أمامه، قال تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾) أى ولما بلغ أعلى درجات الوعي والإدراك {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} وهنا آتيناه بمعنى أنه سعى وحاول واجتهد في طلب العلم، فكافأه الله تعالى مقابل عمله هذا أن آتاه ما سعى إليه من العلم والحكم السديد على الأمور، فهو عمِلَ واجتهد أولاً، فرينا لم يضيع عمله وكافأه عليه، إن هذا العطاء لم يكن جزافاً، إنما كان وفق أسس عادلة صحيحة، لذلك فإن كلمة آتيناؤه لا تعني أن رب العالمين أعطى بدون استحقاق أو عمل، ليست هذه قوانين الله تعالى إذا يقول في سورة الكهف: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)، فالأجر لمن عمل واجتهد وأحسن عملاً، فسيدنا يوسف آتاه الله تعالى حُكْمًا وَعِلْمًا، لأنه لما وجد نفسه عبداً في قصر العزيز، اجتهد في سماع العلم وتحصيله وفهمه، ف آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

آتاه ربنا "حُكْمًا" الحكم ذكره الله تعالى أولاً لأن الحكم هو النتيجة الهامة لتعلم العلم، والمقصود بالحكم هنا الحكم السليم على الأمور، هو القدرة على تأويل الأحاديث، فنتاج العلم و تحصيله المستمر الدؤوب، هي القدرة على حسن الحكم، فهو الفهم الزائد عن الفهم المعتاد أو هو الفهم العميق، الذي يؤدي إلى تميز الإنسان وقدرته على رؤية ما لا يراه الآخرون، يعنى لو تاجر مثلاً يرى في مجال الكسب هذا منفعة كبيرة وفرصة للربح، نجد صاحب الحكم لديه رؤية أعمق مبنية على معطيات في السوق استطاع أن يجمعها ويفهمها ويخرج منها بنتيجة مختلفة وصحيحة. وهكذا.. الحكم على هذا الإنسان، أو هذه الوظيفة أو هذا السكن أو هذه المعاملة... ، والعلم الصحيح مع الاستيعاب، نتيجته رؤية أفضل وأعمق وحكم أصوب.

(وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ) مما يدل على أن الله آتاه الحكم والعلم نتيجة عمله واجتهاده، هذا التعقيب من رب العالمين، لقد بذل واجتهد وأحسن في استقباله لقدرة الله تعالى بالعبودية وبوجوده في قصر الحكم، فجزاه حُكْمًا وَعِلْمًا، ثم جعلها الله تعالى قاعدة لكل من يُحسن،

لأن كلمة (كَذَلِكَ) حولت القضية من قضية خاصة إلى قضية عامة، فكل مؤمن يُحسن استقبال أقدار ربه، فهو من المحسنين وسيجزيه جزاء المحسنين.

نبدأ الآن في الامتحان الأشد صعوبة، الامتحان الثاني:

يقول تعالى: (وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾).

امرأة العزيز تراوده عن نفسه، السيدة المتمكنة الغنية صاحبة القصر والعز والجاه، الجميلة المرفهة، التي تملك أمر هذا العبد، تملك أن ترفعه أعلى عليين وتمنحه منصباً وجاهاً وسلطاناً، تملك أن ترفقه وترفع له المكافآت والحوافز، وتملك أن تخسف به الأرض، وتحرمه حتى من وضعه الحالي وتذله وتهينه، ولقد عبر ربنا عن سلطانها بهذه الجملة (وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)، لم يقل وراودته التي هي في بيت زوجها أو في بيت العزيز، بل عبر ب"هُوَ فِي بَيْتِهَا" يعني تحت سيطرتها تماماً وأمره بيديها، أعلى درجات القوة والسيطرة، أمام أقل درجات القوة وفقد السيطرة، هذه السيدة الفخمة صاحبة السطوة، معجبه بالعبد الذي يعمل لديها، وتحاول أن تغريه بشتى الوسائل، بالتأييد دعوتها له في هذا الموقف لم يأت فجأة، بل سبقتها محاولات عديدة لاستمالتة وجذب اهتمامه، ومن المؤكد أن سيدنا يوسف أعرض عن كل هذه المحاولات، فقررت أن تقدم له عرض يستحيل عليه أن يقاومه أو يرفضه، فأغلقت الأبواب، باباً وراء باب، حتى يطمئن تماماً أنه لن يدخل عليهم أحد، قد ظنت أنه رفض محاولاتها السابقة خوفاً من أن يراها سيده، فقالت أن الحل أن تطمئن به بإغلاق الأبواب، ثم عرضت نفسها عليه بكل جلالها وفتنتها وسلطانها، عرض مغري جداً، سوف يكسب من الاستجابة له الكثير، أولاً سيشتبع رغبته الخاصة، ثانياً سيضمن وضعاً كريماً مريحاً وترقيات لم يكن ليحلم بها.

مثلاً من يُقدّر له الله تعالى امتحان، مدير يطلب منه شهادة زور على زميل له، أو أن يكون جاسوساً على زملائه لأذيتهم، أو يساعده في مؤامرة على زميل آخر، أو يسكت عن ظلم أو فساد يحدث أمامه، لو أطاعه سيقرب وسيكسب الكثير، لو رفض، سيقضى وقت العمل في هم ونكد، وسيُحرم من الترقيات والمكافآت، وقد يفصل من عمله. ماذا سيختار؟ أولاً لا بد ألا نستعين بمثل هذه الامتحانات لأنها صعبة جداً، لكنها سهلة على من تعلم دينه، وعلم بصفات ربه وأيقن أنه بها، وتحول علمه للممارسة اليومية.

هكذا كان سيدنا يوسف عليه السلام، كان طوال الوقت يمارس حياته على أساس علمه ويقينه بصفات الله تعالى، علمه أن الله تعالى موجود وسميع وبصير وحسيب، وأنه هو الرزاق ولا يملك له أحد في العالم أن يرزقه أو يمنع عنه الرزق، وأن عليه فقط أن يطيعه فيما يجب ويرضى، وهو وحده سبحانه متكفل برزقه ونصرته.

هذا ما فعله سيدنا يوسف عليه السلام، لما تزينت سيدة البيت وغلقت الأبواب وقالت أنا لك، كانت أول كلمة قالها وأول رد فعل سريع له قال: مَعَاذَ اللَّهِ.. المَعَاذُ: المَلْجَأُ. معاذ الله يعني أُلْجَأُ إِلَى اللَّهِ واحتمى به مما تدعونني إليه من الفاحشة والمعصية، لماذا أحتمى بالله تعالى، لأنه موقن بصفات الله تعالى، موقن أنه موجود وسميع وبصير وقادر أن يحميه ويحفظه.

لو هذه المعاني ضعيفة عند المسلم وغير واضحة ولا يمارسها في حياته، في موقف شديد مثل هذا سينسى صفاته، سيتحرك ويحجب بهواه، لن يواجه الموقف بمثل هذه الشجاعة، لكن لأن سيدنا يوسف يعيش بهذا المعنى عند كل موقف في حياته، فهذه الصفات في

مقدمة تفكيره وتحتل الأولوية عند رد فعله، فكان أول رد فعل له، سرعة الالتجاء لله تعالى، فالمسلم يمكنه معرفة حقيقة أولوياته من خلال ملاحظة أول رد فعل له، وهذه من أهم رسائل الأقدار والابتلاءات لنا، أن نتعرف بصورة حقيقية على ما بداخلنا من أجل تصحيحه وتوجيهه الوجهة الصحيحة بزيادة العلم والعمل.

ثم قال: **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...** العلماء قالوا إن هذه الجملة تحتمل معنيين، إما أنه يذكر نعمة ربه الذي هو سيده الذي اشتراه وقال لامرأته أكرمي مثواه، أو المعنى الثاني أنه يقصد رب العالمين ويذكر نعمة ربه عليه لما قدر له من يخرج من البئر، ثم قدر له التمكين في بيت العزيز يتعلم فيه أعلى وأرقى العلوم في أعظم دولة في العالم في هذا الوقت.

والمعنيان يدلان على النفس العالية التي تعرف المعروف للناس والله تعالى، والتي تقدم الوفاء والاخلاص لمن قدم لها خيراً، وسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وضع هذا القانون في حديثه الشريف وقال: **"مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ"** فشكر الناس مقدمة لازمه لشكر الله تعالى، ومن لا يشكر من يحسن إليه من الناس، لن يشكر الله تعالى.

ثم بعد أن رد على إغوائها بمعاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، ذكر سيدنا يوسف القانون الإلهي العام: **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ..** هذا قانون من قوانين الله تعالى الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، والقرآن الكريم مليء بهذه القوانين الإلهية العظيمة، منها:

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ يونس.

إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ يونس.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ الذاريات.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ فصلت.

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ.. ﴿٩٦﴾ النحل.

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ الأعراف.

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ الكهف.

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يونس.

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا.. ﴿٥١﴾ التوبة.

.... وهكذا، يمكن لكل مسلم أن يستخرج قوانين رب العالمين، يصدقها ويوقن بها، ويتعلم كيفية تطبيقها، ويضعها أولوية لديه ليسهل عليه اصطحابها معه في كل حركة حياته.

فسيدنا يوسف ذكر هذا القانون ليؤكد على موقفه، ويؤكد على إصراره على اتخاذ الموقف السليم المتوافق مع قانون الله تعالى، فالمعصية ظلم للنفس وللآخرين، والذي يظلم يعتقد أنه بظلمه هذا سيجنى مصلحة ويقبح، لكن القانون الإلهي، الذي أصدره الحكيم يقول **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** أبداً.

إذا من مثبتات المسلم إذا ما قدر الله تعالى له امتحان تزيين المعصية، أن يدعو الله ويستعين به **مَعَاذَ اللَّهِ**، أن يذكر نعم الله تعالى عليه **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**، ويثبت نفسه بالقوانين الإلهية التي وردت بالقرآن الكريم **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**.

بعدهما رفض سيدنا يوسف عليه السلام ارتكاب هذه المعصية بعزة وإباء وأردف رفضه بأنه يحتمى بالله تعالى وأنه لا يفلح الظالمون.. ثم سنصل لرد الفعل التالي (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) في ضوء الرفض السابق لسيدنا يوسف للاستجابة لهذه السيدة، والإيضاح الإيماني الرائع لسبب هذا الرفض، سنستعرض التفسير المنطقي لهذا الجملة في سياق هذا الكلام وفي سياق ما حدث فعلاً. هي همت به أن ترغمه على الاقتراب منها، ويؤكد هذا ما جاء في الآية التي تلى هذه الآية مباشرة: (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) هي تجرى وراءه، وهو هم بها أن يدفعها عنه ويهرب، ودار شدٌ وجذبٌ إلى درجة أنها قبضت على قميصه من الخلف فتمزق. هذا هو التصرف الطبيعي لسيدنا يوسف بعد ما قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، فما معنى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ..)

البرهان: الحجة البينة الفاصلة، ولولا: حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره، يعني لما أقول: لولا الدواء لهلك الناس، يعني لولا الدواء موجود لهلك الناس. فهذا من خلال السياق الذي جاء بالآية، لولا أن رأى برهان ربه، يعني لولا أن لديه الحجة البينة الفاصلة التي ظهرت لما قال بيقين: (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) لولا يقينه بهذه القضايا كأنه يراها، لم يكن ليستطيع أن يصمد في هذا الامتحان الصعب، مثل الآية الكريمة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ..) رسول الله عليه الصلاة والسلام لم ير أصحاب الفيل رؤية العين، لكن المقصود بها تصديق كلام الله تعالى حتى كأنه يراها، وسيدنا يوسف أيقن بكلام الله فأصبح كأنه يراه. وهكذا النجاح في الامتحانات والابتلاءات في حاجة لأن نتعلم قوانين ربنا ونحيا بها كأننا نراها أمامنا، بدون ذلك يكون النجاح صعب لأن المغريات كثيرة وضاعطة.

ثم يخبرنا رب العالمين بالمكافأة التي منحها إلى سيدنا يوسف على موقفه هذا وعلى نجاحه في هذا القدر.. (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).. يعني لهذا صرفنا عنه ما يسوؤه وصرفنا عنه فعل الفحشاء، فهو من عباده الله الذين أخلصوا عملهم لله تعالى، فجعلهم من عباده الْمُخْلَصِينَ الذين استخلصهم ورفعهم وطهرهم.

ثم تأتي مجموعة الآيات التالية: (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۗ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۗ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۗ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ۗ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِكُمْ ۗ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾)

وصلنا للقاضي الذي حكم بينهم، هي قدمت إفادتها أنه أراد بها السوء: وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۗ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

قدمت شهادتها وقدمت الحكم الذي يجب أن يصدر عليه، وقدم سيدنا يوسف إفادته بوضوح وفي جملة واحدة.. قَالَ: هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي، هذا استقبال ناجح جداً لقدر الشهادة، المظلوم لا بد أن يبين موقفه بوضوح وصدق بدون خوف أو مداراة، فإذا بالقاضي العادل يحكم حكماً منصفاً قائماً على أدلة محددة، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ .. ظهرت براءة سيدنا يوسف على يد قاضي من أهلها، قد يكون المعنى أنه من أقاربها، أو من المنتسبين لطبقتها ومن حاشيتها.

فإذا كان رد الفعل على ظهور براءته وإدانة سيدة القصر بهذه الجريمة المخلة بالشرف، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ.. هكذا فقط، وقال للمجموعة الفاسدة المفسدة التي كانت تناصر سيدة القصر، أن ما حدث كان نتيجة تدبيركم السيئ.. إن كيدكن عظيم.. تعليق جانبي على هذا الوصف **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**، نعم جميعاً أنه لا يجوز إطلاقاً إنزال صفات الكفار على المؤمنين، لكن يحلو لبعض المنتطعين أن يطلق هذه الصفة على النساء المؤمنات، أحياناً من باب الرغبة في الانتقاص منهن، وأحياناً للسخرية والاستهزاء، وأحياناً للجهل.

في بعض التفسيرات، أن من أطلق هذه الصفة هو القاضي الذي قضى بالحق، في البعض الآخر يقولون أن هذا تعقيب من رب العالمين، إن من أطلق هذه الصفة في حق النساء كان يقصد زوجة العزيز وفعالها، أطلقها ذمّاً لهن على ما فعلته. والله تعالى يقول في حق بعض الرجال من الكفار: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ..) ﴿٤٦﴾ إبراهيم... مكر هؤلاء الرجال ليس بعظيم وقطع، بل تزول منه الجبال، من شدته وشره يؤدي إلى تغييرات سيئة وكبيرة، فهل نعم هذا الحكم ونالصق هذه الصفة السيئة بكل الرجال حتى المؤمنين منهم، وقول من طبع الرجال المكر السيئ، هذا لم يحدث لأنه لا يجوز أن نطلق صفة رب العالمين أطلقها على الكفرة في موقف ما على المؤمنين، وهكذا أيضاً وصف النساء الفاسدات المفسدات بأن كيدهن عظيم، لا يجوز بأي حال أن نعمه على كل النساء، وطبعاً يجرم أن نطلقه على المؤمنات ولا حتى من باب الاستخفاف، فالله تعالى وصف المؤمنات ب **الصَّالِحَاتِ الْقَائِمَاتِ الْحَافِظَاتِ لِلْغَيْبِ بِمَا حِطَّ اللَّهُ..** ووصفهن بأنهن **القَائِمَاتِ الصَّادِقَاتِ الصَّابِرَاتِ الْخَائِشَاتِ الْمُتَصَدِّقَاتِ الصَّائِمَاتِ وَالذَّاكِرَاتِ لِلَّهِ كَثِيرًا.** فهل ترك كل هذه الصفات الجميلة الإيمانية التي وصف بها رب العالمين المؤمنات، ونشيع وصفهن بالصفة التي وصف بها الكافرات الفاسدات، هذا تصرف لا علاقة له بأخلاق المؤمنين.

ثم قال: (يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)، هذه الجملة إما قالها زوجها أو القاضي الذي حكم بينها، لكنها تدل على الرغبة في ستر الأمر وعدم التعرض للسيدة، وطلب من سيدنا يوسف أن ينسى الأمر ولا يذكره، وبالتأكيد فعل ذلك.

ثالث امتحان أو قدر قدره الله تعالى لسيدنا يوسف:

يقول تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتهنَّ أَكْبَرتهنَّ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾)

لم ينته الامتحان، جمعت امرأة العزيز مثلاتها من النساء واشهدتهن على جمال سيدنا يوسف، واعترفت لهن بمحاولاتها معه، وبعد هذا الاعتراف الفاجر، هددته لأن لم يفعل ما تريده منه، لتسجنه وتجعله من الأذلاء الخاضعين. بعد نجاحه في امتحان المواجهة المباشرة مع هذه السيدة الفاجرة، ازداد الضغط واستمر وزاد عدد المشتركين فيه.

هنا كلمة تؤكد المعنى الذي شرحناه ل **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ..** أنها قالت **وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ..** واستعصم يعني قاوم وامتنع وبالغ في الامتناع.. فهي تعترف أنه رفض بقوة وإصرار إغواءها له، لم يستجب بأي صورة من الصور التي وجدتها مكتوب في بعض التفاسير. الآن يتعرض سيدنا يوسف لمحنة وامتحان الضغوط المستمرة للتشجيع على المعصية وارتكاب الفاحشة، وكما يقول المثل (الزن على الودان أمر من السحر)، يعني تكرار الطلب والمداومة عليه ورافقه بالكثير من المكافآت وتذليل العقبات، أشد أضراراً مما لو سحر هذا الشخص، وذلك للمبالغة في أثر التكرار، إن امتحان المواجهة المباشرة والنجاح فيه، مختلف عن امتحان مداومة الدعوة طول الوقت ومن عدة جهات.

غالباً النجاح في امتحان الزن أصعب كثيراً من امتحان المواجهة المباشرة السريعة، فالإنسان يسمع فيه الكثير من التبريرات ووضع التسهيلات وتذليل العقبات، ضغط شديد ومستمر، لا يتحملة إلا شخصية مستقلة لها رؤية واضحة لدينها وقيمها.

نسمع سيدنا يوسف وهو يواجه هذا القدر والابتلاء بالصمود وبالبداء التالي: **يَقُولُ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾**

علم تمام العلم أن مصيره السجن لو لم يستجب لسيدة القصر، فدعا ربه أن السجن أحب إليه من الاستجابة لفعل الفاحشة، المؤمن يحب ويفضل المكان أو الظروف التي تحميه من المعصية، حتى لو كانت السجن، لو الوظيفة الأقل راتباً هي الحلال فهي أحب إليه، لو مدرسة أولاده الأقل هي التي ستحتفظ عليهم دينهم فهي الأحب إليه، لو ترك المرأة لعملها وتفرغها لبنتها وأولادها هو الذي يصلح أحوالهم فهو الاختيار الأحب إليها، ولو وظيفتها المرهقة هي التي تحميها فهي الأحب لها... وهكذا. فإدام الخيار بين حياة حرة تُرتكب فيها الفواحش، وحياة حبيسة في السجن طاهرة من ارتكاب الفواحش، فالاختيار هو للمكان الطاهر، حتى لو كان السجن.

أفضى لربه بخوفه من الوقوع في المعصية من شدة الضغط الواقع عليه، فالدعاء لرب العالمين تتعترف فيه بضعفنا وندعو الله تعالى أن يحمينا بقوته وقدرته، فاستجاب له أرحم الراحمين، فصرف عنه كيدهن، يقول تعالى: **(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾)** لما سيدنا يوسف نجح في هذا الامتحان الصعب وبذل أقصى استطاعته في التمسك بالموقف الحق ورفض الباطل، استغاث بربه فاستجاب له، قال تعالى: **(..فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ..)** لم يقل لنا كيف، تركها بدون تبيان أو تحديد لكي نوقن ونصدق ونؤمن إنه وحده سبحانه القادر على الاستجابة لكل ما نسأله، فرب العالمين لديه ملايين ومليارات الطرق لحل قضية نرى أنها لا حل لها، هو يحلها سبحانه من عنده، بشرط أن نبذل كل استطاعتنا ونجتهد في الإجابة السليمة على الامتحان.

نحن الآن أمام شاب مكافح طائع لله تعالى رفض المعصية رغم سهولتها وإغوائها، هل معنى هذا أن الامتحانات انتهت، لم تنته.

سنرى امتحان رابع قاسى فيه حس الحرية وظلم بين:

وهو قدر الله تعالى لسيدنا يوسف أن يدخل السجن، أدخل السجن وهو برئ، وإن حبسه بالسجن وهو برئ لا يعنى غضب الله تعالى عليه أو رضاه، إنما هو يعنى امتحان وابتلاء في حاجة لإجابة صحيحة.

وسنرى كيف أجب عليه سيدنا يوسف إجابة صحيحة. يقول تعالى: **﴿ ٣٥ ﴾** **ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾** أهل القصر لما رأوا دلائل براءته وإصراره على العفاف وإصراره على موقفه الراض للمعصية، وجدوا أنه لا حل سوى ابعاده وسجنه ولو ظلماً، فجاء قدر الله تعالى بالسجن لسيدنا يوسف وهو الطاهر العفيف المؤمن التقى التقى المظلوم، لم يفعل أي شيء يستحق به هذه العقوبة، أدخلوه السجن لأنه طاهر عفيف، راض للمعصية مطيع لربه، ظلم بين، لو تعرض له أي إنسان لشعر بأن الله تعالى تخلى عنه، ويحدث نفسه.. (إزاي يا ربي تُقدّر لي دخول السجن وأنا رفضت معصيتك، هي دي نتيجة الطاعة!! إزاي تكون نتيجة الطاعة إني أترمي في الحبس من غير محاكمة ولا أي ميعاد لخروجي ولا أي حد يعبرني!! إزاي تُقدّر إني أترقد من شغلي وأنا قلت الحق اللي يرضيك!! إزاي تُقدّر إني اتعرض للأذية دي وأنا بأصلي وأصوم!!)

هذا الكلام ينطبق على هذه الآية: (يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾) الحجرات.

فنحن فمن على الله تعالى بعبادتنا وطاعتنا، ونرى أنه من المفروض أن يكافأنا ربنا بما نراه مناسباً، وإذا لم يحدث هذا نتعجب ونتألم ويصعب علينا الفهم، لكن الإيمان الصادق يجعلنا نوقن أن المنة لله تعالى أن هدانا للإيمان وللعمل الصالح، وتعامل التعامل السليم مع ما يقدره، لشقتنا الكاملة في أن كل ما يقدره خير.

فكيف اجتاز سيدنا يوسف هذا الامتحان؟؟ يقول تعالى: **﴿ ٣٦ ﴾** **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾** قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْرَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

هناك جملة أو صفة في هذه الآيات تدل على حسن استقبال سيدنا يوسف لقدر الله تعالى بنجاح، إنها "إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" نلاحظ أن صفة الإحسان ملازمة لسيدنا يوسف طوال السورة، وهنا الفتيان اللذان معه في السجن وصفوه بأنه من المحسنين، رغم وقوعه في ظلم بين، إلا أنه كان يحسن لمن حوله في السجن، فلا يقول إلا كل ما هو طيب، ويعينهم بما يستطيع، ويقول الرواة: (إن يوسف عليه السلام قد عُرف في السجن بالجود، والأمانة، وصدق الحديث، وحُسن السمات، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير أي تأويل الرؤيا والإحسان إلى أهل السجن). هذا على الرغم من أنهم لا يتبعون ملته ولا يؤمنون بالله تعالى، رغم هذا أحسن إليهم حتى أنهم لجأوا إليه لتفسير ما خفي عليهم من رؤاهم، ويدل اعترافهم أنه من المحسنين على أن المعروف معروف، كل الناس في الدنيا كلها على اختلاف مللهم يعرفون ما هو الإحسان، ويقدرونه ويأسنون لكل محسن حسن الخلق، فلا يقول أحد هؤلاء كفره لا يستحقون المعروف، فالإحسان مطلوب مع كل الناس وكل الحيوانات، والمحسن مع الجميع هو المحسن حقاً لأن الأخلاق لا تتجزأ.

سيدنا يوسف في السجن كان يحسن في تصرفاته وأخلاقه، فلا يذكر أحد بسوء ولا يسب ولا يشتم، ويقوم بعباداته بانتظام ودأب، بل وهو في السجن وهو مظلوم ومقهور، ولا يرى أي بادرة أمل في إنصافه، نجده يدعو من حوله لعبادة الله الواحد الأحد، عبادة الله الذي قدر له دخول السجن بعد أن رفض معصيته!!! وهذا لسابق علمه بالله تعالى وبأنه لا يُقدر إلا الخير، يعلم أن كل ما عليه أن يحسن استقبال قدر ربه، لأنه مؤمن وموقن بقانون وضعه رب العالمين بأنه يدافع عن الذين آمنوا، فما عليه إلا أن يكون مؤمناً، والله تعالى بعظمته وقدرته سيدافع عنه ويُفْرِج كربه في الوقت وبالصورة التي يراها تحقق للمؤمن أكبر مكسب في الدنيا والآخرة. يقول تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾** الحج.

هذا المثل العظيم يعني أنه لا عذر لأي مسلم يتواجد في أي ظرف شديد أو في وضع هو مظلوم فيه، أن يكون سيئ الخلق، حتى لم يعبر سيدنا يوسف عن شعوره بالظلم والقهر بالشكوى والشتائم فمِن ظلموه، استخدم وجوده في السجن فقط في الدعوة لله تعالى، وذلك من خلال تخلقه بالأخلاق الطيبة وبالإحسان لمن حوله.

ومن لطفه وتخلقه بالأخلاق الجميلة مع زملائه بالسجن أنه طمأنهم أنه سيؤوّل لهم رؤياهم قبل موعد وجبة الطعام التالية.. **قَالَ لَا يُؤْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْرَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا..** أعطاهم موعداً وطمأنهم أنه سيستجيب لهم ويحقق لهم طلبهم في وقت محدد، حتى يجد وقت يدعوهم فيها لعبادة الله الواحد الأحد، هذه هي: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..) كم أنت محسنٌ في كل خطوة وفي كل تصرف يا سيدنا يوسف عليك السلام.

نتعلم من هذا الخلق الحسن الجميل،

**أولاً:** أن نحدد موعداً لتحقيق رغبة من يسألنا أمراً ما، فلا نتركه بلا تحديد ولا تبيان، ليس هذا من حسن الخلق ولا من الإحسان. **ثانياً:** إذا أردنا أن ننصح أحداً، فقبل النصح لابد أن نحسن إليه ونناديه وتكلم معه بأطيب اسم، وتعامل معه معاملة طيبة تجعله يثق بنا ويسمع لنا، ونكون صادقين ومحققين وموقنين بما نقوله وننصح به.

يقول تعالى على لسان سيدنا يوسف: **(يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَتْمُ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾)** لقد رسم يوسف عليه السلام بهذه الكلمات القليلة الناصعة المنيرة، كل معالم الدين، وكل مقومات العقيدة، إنها دعوة لتوحيد الله تعالى بالعبادة، وإن لب التوحيد هو هذا القانون، " **إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** " له **الْحُكْمُ** يعني هو وحده من يصدر الأحكام في حياتنا، هذا حرام وهذا حلال، هذا ما يحبه لنا وهذا ما لا يحبه لنا، هذه الأمر له الأولوية والأهمية الكبرى، وهذا ليس له أهمية... وهكذا... هو وحده من نأخذ منه الأحكام في حياتنا.

"**أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**" الإيمان بأن له الحكم وحده، سيُرتب نتيجة أنه وحده سبحانه من يستحق العبادة، والعبادة هنا ليست بمعنى الشعائر الدينية فقط، لكن بمعنى الخضوع له والطاعة مع الثقة الكاملة فيه والحب والتعظيم.

ثم بقية الآية "**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**"، ما الذي لا يعلمونه، لا يعلمون أن الحكم لله وأنه أمر ألا نعبد إلا إياه، أكثر الناس لا يعلمون أنه لا نافع ولا ضار ولا متحكم ولا رزاق ولا مجيب ولا عليم ولا حكيم إلا الله تعالى، لما يطيع الإنسان هواه أو المجتمع أو أهله

أو أصحابه أو رؤساؤه على غير مرضاة الله، كل من يعتقد أنهم ينفعون أو يضررونه أو أن مصلحته في أيديهم، فإنه بذلك يعتقد أن مع الله تعالى آلهة أخرى قادره على نفعه وضره، هذه الآلهة ليست اللات والعزى وهبل والأصنام، لكنها كل بنى آدم وكل مجتمع وكل جمعة وكل حزب وكل جماعة وكل شلة أطاعها وأخذ منها أحكامه، ما يجب وما لا يجب، ما يجب وما لا يجب، ما يصح وما لا يصح.. هذا شرك بالله تعالى، وربنا أخبرنا أن أكثر الناس يقعون في هذا الشرك، في نفس سورة يوسف يقول تعالى: **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾**، فالتوحيد ليس بالأمر السهل، الكلام سهل لكن عند التطبيق صعب، التوحيد عبارة عن مجاهدة لتحقيق تقوى الله تعالى، وطاعة وحسن استقبال لأقدار الله إيماناً و يقيناً بصفات الله تعالى ووعوده وقوانينه، في الدنيا والآخرة. المؤمن الموحد هو الذي يستطيع أن تتحقق في حياته هذه الرؤية الواضحة، لهذا يعلمنا ربنا من خلال قصة سيدنا يوسف معنى التوحيد وحقيقته، فلقد أظهر في كل مواقفه يقينه بصفات الله تعالى وقوانينه، وسننه ووعوده ووعيده.

ما زال سيدنا يوسف في السجن ظليماً وعدواناً، وكادوا أن ينسوه أو تناسوه، ( **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاءُ الشَّيْطَانِ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾** ) لكن هل نسيه ربه، بالطبع لا.. وهو في السجن استقبل قدر الله أحسن استقبال ونجح في هذا الامتحان، وربنا يدير له أحسن تدبير، جعل الله تعالى الملك يرى مناماً متكرراً فشل في تأويله كل من حوله، ( **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾** ) **قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾** )

لما سمع صاحب سيدنا يوسف - الذي نجا - أن الملك رأى رؤية، وفشل من حوله في تفسيرها، تذكر صاحبه بالسجن وكيف فسر له رؤيته وجاءت كما فسرهما، سارع إليه في سجنه ليسأله تفسير رؤية الملك، ( **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِي ﴿٤٥﴾** ) **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾** ) سنقف بدايةً عند صفة جميلة جداً لسيدنا يوسف بهذه الآيات، "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ"، رَجُلٌ صِدِّيقٌ : هو المُلَازِمُ لِلصِّدْقِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالصُّحْبَةِ، ما أجمل صفاتك يا ابن الأكرمين، حتى وهو في محنته ملازم للصدق، فعله يُصَدِّقُ قوله، يأمر بالمعروف ويفعله، يأمر بحسن الخلق ويفعله، يدعو لله تعالى ويتصف بما يحبه ويرضاه، صحبته صادقة لا كذب فيها ولا مدهانة ولا خيانة، صاحبه يتذكر صفاته بعد كل هذه السنين.

وهنا ملحوظة، هل لو كان سيدنا يوسف وحاشاه، سيئ الخلق في معاملته، هل كان سيتذكره أو يستعين به، بالطبع لا، هذه هي المواقف التي تؤكد لنا أن الأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة تعود على الإنسان بالملكاسب في الدنيا قبل الآخرة. وسيدنا يوسف كان يحسن لهذا الإنسان لأن ربنا يُحب منه ذلك بدون أن ينتظر منه مكسباً، وهكذا من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

نرى الآن تفسير سيدنا يوسف لرؤيا الملك، سنبدأ في ملاحظة تأثير علم تأويل الأحاديث الذي تعلمه، (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾)

تشمل هذه الآيات تفسير المنام وزيادة، لو فسر المنام فقط سيكون كالتالي:

رؤية الملك (سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ)، التفسير (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا)

رؤية الملك (يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٍ)، التفسير (يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ)

رؤية الملك (وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ)، يؤيد التفسير السابق.

فالسبع بقرات السمان هن السبع سنين اللائي ستزرعون فيهم زراعة جيدة، والبقرات العجاف هن السبع سنين اللائي ستحدث فيهن شدة ومجاعة. هذا هو التفسير المباشر للمنام فقط.

أما الحلول التي اقترحتها فهي نتاج علمه بتأويل الأحاديث، العلم الذي تعلمه من سنين في قصر العزيز، قدم لهم الحل بسرعة وبحكمة، فقال: "قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا" هذا تفسير المنام، أما نتيجة العلم الذي تعلمه: "فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ.." هذا ليس له علاقة بالمنام، هذا هو الحل، لا بد أن تدخروا خلال هذه السنين، وأسلوب الادخار هو ترك القمح في السنايل بدون نزعها، "ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ" هذا تفسير المنام "يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ.." هذا هو التوقع العلمي السليم بعد تخزين القمح مثلما قال، فالناس ستأكل ما تم تخزينه كله، إلا قليلاً يظل في الحصون ليكون بذورا لزراعة ما هو قادم.

"ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ.." هذا التوقع لم يأت بالمنام على الإطلاق، هو توقعه المبني على العلم الذي تعلمه، هذا هو تأويل الأحاديث، العام الثامن هو عام انفراج الأزمة، عام الماء الغزير والوفرة والزراعة.

وبهذا لو كان سيدنا يوسف لديه القدرة على تفسير المنامات فقط كان اكتفى بالتفسير الذي أوضحناه، لكن لأنه تعلم تأويل الأحاديث وهو هذا العلم الغزير الرائع المتنوع الذي أحسن استيعابه وأحسن استخدامه، فاستطاع به أن يحول منام الملك إلى خطة عمل ممتازة معتمدة على عدة علوم جمع بينها وأحسن النظر فيها أفضت إلى وضع هذه الخطة التي أنقذت مصر ومن حولها من المجاعة المهلكة التي امتدت لمدة سبع سنين.

هذا التفسير مع الحل الذي قال به سيدنا يوسف، لما رجع بها الرجل إلى الملك وأبلغه، أُعجب الملك بكلامه وتفسيره وخطة العمل التي وضعها، وعرف أنه أمام شخصية متعلمة ذكية واسعة الأفق، فطلب أن يحضروه له، فإذا سيدنا يوسف يرفض الخروج من السجن إلا بعد رد شرف، إلي هذا الحد هو عزيز، يقول تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

إن إعلان شرفه وبراءته من هذه الاتهام المخزي أولى عنده من الحرية وهو يحمل هذا الاتهام، فالعفو الرئاسي ليس صكاً بالبراءة لكنه عفو عن ذنب ارتكب، فلا بد من احقاق الحق وإقامة العدل حتى تتضح الأمور وتسير في طريقها الصحيح المستقيم، وهذا الملك العادل سأل واستفسر عن القضية، ثم أمر بجمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومعهن امرأة العزيز، وسألهن عن حقيقة ما حدث، وللغرابة صدقوا وأجابوه بحقيقة ما حدث، هناك علامة استفهام كبيرة تجاه هذه الصراحة وهذا الصدق، كيف بسيدات المجتمع الراقي اللاتي كن يتآمرن عليه من أجل أن يستجيب لسيدته بفعل الفاحشة بلا خجل ولا حياء، أن يصدقن هذا الصدق ويشهدن بالحق!!! كيف ولماذا حدث هذا التغيير الكبير من اللؤم والكيد العظيم، إلى الصدق والصراحة وقول الحق!!!

قد يكون موقف سيدنا يوسف الراض بشدة لارتكاب المعصية رغم كل المغريات، ثم إيثاره دخول السجن على المعصية، أثر فيهن وجعلهن يُراجعن أنفسهن ويُقررن أن يعترفن بالحق وبالبراءة الكاملة له، وجعل امرأة العزيز تشهد على نفسها هذه الشهادة الجارحة لكرامتها وحياتها الزوجية، إنه تحولٌ غريب جداً، لكن أعتقد أن موقفهم هذا نتيجة هدايتهم وتوبتهم لما لمسوا جمال الإيمان وطهارته وروعته متمثل في هذا العبد الذي استعصم ولم يستجب أبداً لهن.

ثم بعد شهادتهن هذه سنقف عند هذا التعليق "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾" هاتان الآيتان الكثير من المفسرين يفسرونها ما بين أن سيدنا يوسف هو من قالمها، أو امرأة العزيز هي من قالمها، لكن سياق الآيات تدل على إن امرأة العزيز هي من قالمها لأن الآية التي تليها مباشرة يقول فيها الملك: "وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ.." فسيدنا يوسف لم يكن حاضراً، ولما سمع الملك حقيقة الأمر من النساء، طلب أن يحضروه له، إذاً امرأة العزيز هي من علقت هذا التعليق بعد أن أدلت بشهادتها الصادقة، قالت: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾".

أول تعليق على كلامها هذا أنه يُظهر بوضوح توبتها الرائعة النصح الحقة، تقول: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ.." وهنا لم تخنه بمعنى أنها لم تنتهز فرصة غيابه عن المجلس وتقول إفادة كاذبة تخون بها أمانة الشهادة، ثم أعقبت تصرفها بذكر قانون رباني وهو "أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ" فهي لم تخنه لأنها موقنة أن الله لا يمضي مكائد الخائنين ولا مؤامرتهم، وأن هذه المكائد لا تؤدي لأي خير أو فلاح.

إنها قوانين الله تعالى التي يتحرك بها المؤمن والتي تعينه على اتخاذ المواقف السليمة، ثم قالت: "وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي". إنها توبة رائعة، اعتراف بالذنب على الملأ، فعندما تكون المعصية على الملأ، لابد أن تكون التوبة على الملأ ليتعظ من أعجب أو تأثر بها من قبل، ثم ذكرت حقيقة يجب أن ينتبه لها كل مؤمن "إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي"، أصبحت مؤمنة عن علم وعن دراية كاملة بمواطن المعاصي، جزاها الله خيراً على ما علمتنا كيف تكون التوبة النصوحة.

الآن سنرى كيف حول الله تعالى لسيدنا يوسف قدر السجن ومنام الملك، إلى خير كبير، سنرى كيف يُقدر الله أقداراً لم تكن لتخطر على البال أو يمكن توقعها، فالمؤمن لما يُحسن استقبال أقدار الله تعالى ويوقن به ويثق بعلمه وحكمته ورحمته، يغير له الكون كله ليعمل لمصلحته، "... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾" الطلاق.

إذا استدعينا أقصى تخيلاتنا لطريقة أو أسلوب نصره هذا المظلوم بالسجن، لم تكن لتتخيل أن الفتح سيأتي من خلال منام، لهذا لا تقترح على الله شيئاً، عليك بالعلم والتقوى وحسن استقبال أقداره، وعند الله تعالى أرزاق وفتوحات لم تكن تتخيلها، تأتي في الوقت وبالكيفية التي يرى سبحانه أنها تحقق لك مصلحة الدنيا والآخرة.

إن حسن استقبال سيدنا يوسف لأقدار ربه وهو في السجن هو الذي جعل صاحبه في السجن يتذكر إحسانه وصدقه، فيلجأ إليه. وحسن استقبال سيدنا يوسف لقدر العبودية في بيت العزيز بتعلم العلم هو الذي حول به منام الملك لخطة عمل ممتازة وفعالة في مواجهة الأزمة، ثم سيقوده لقمة المستوى الاجتماعي بعد ما كان في قاعه.. يقول تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِلُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾)

لما أحسن سيدنا يوسف تفسير المنام، وأحسن تحليله لهذا المنام وقدم الحلول العلمية العملية للوضع الخطير الذي رأى أن البلد ستمر به، أعجب الملك به واتخذ في وظيفة عليا، وهي أن يكون أميناً على الخزائن يفعل بها ما يراه صالحاً. هنا نبدي إعجاباً كبيراً بالملك،

أولاً: لبحته السابق عن العدل، لما استجاب لسيدنا يوسف الذي طلب بإعادة المحاكمة ليُظهر براءته،

ثانياً: لموقفه من اختيار من رأى أنه الأكفأ، هذا موقف راقٍ ونادر الحدوث، لما توسم فيه صفات المنقذ الحفيظ العليم، لم يتوقف عند كونه كان عبداً، عندما وجد لديه الكفاءة المطلوبة لإدارة موارد البلد استخدمه فوراً ومكنه من المسؤولية، فلا يُقدر أهل العلم والفضل إلا أهل العلم والفضل، لقد أحسن استقبال قدر الله تعالى لما ساق له المنقذ.

هذا هو قدر وامتحان كل حاكم ومسئول، بمتحنه الله تعالى بأن يسوق له أصحاب الكفاءات وأصحاب الولاءات، فينجح في هذا الابتلاء من يؤدي أمانة الحكم ويختار أصحاب الكفاءات، ويسقط في هذا الامتحان من يستبعد أصحاب الكفاءات ويستخدم أصحاب الولاءات، لهد مصر في هذا العهد كانت حضارة عظيمة لأنها كانت محكومة بقيم ومبادئ حضارية راقية ورائعة.

هنا ملحوظة، سيدنا يوسف عليه السلام لما قدم للعزير السيرة الذاتية له التي توّهله لأن يكون أميناً على خزائن الأرض (مصر)، لم يقل أنا أستحق الوظيفة لأني أحسن تفسير الرؤى، لكنه قال أنا أستحق الوظيفة لأنني (حفيظٌ عليمٌ)، حفيظٌ وهذا خلق ناتج عن معرفته بالله تعالى، فالمؤمن يحفظ الأمانة ويؤدى حق الناس ويقيم العدل، هذا هو الحفيظ. وعلّم هذه صفة ناتجة عن العلم الذي تعلمه بيب العزير، فهو على علم بالأحداث والظروف الحالية والمستقبلية، وعلى علم بكيفية مواجهتها، فعلم يعنى كفاء لإدارة وتحمل المسؤولية، ونحن نعلم أن غياب أي من هاتين الصفتين في أي حاكم أو مسؤول تعنى الفشل الكامل، فمن هو غير حفيظ، هو حرامي مرتشى يأكل أموال الناس بالباطل، فحتى لو كان عليمًا، فسوف يفشل. ومن هو حفيظ لكنه جاهل لا علم عنده بما يحدث ولا بكيفية إصلاحه، فسوف يفشل أيضاً، النجاح فقط لمن هو حفيظ عليم.

ثم تبعها ربنا بالآية الرائعة، وكل آيات ربنا رائعة، يقول تعالى: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾)

وكذلك تعنى بسبب كل ما مضى من أفعاله ومواقفه.. "مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ" أصبح حراً يذهب حيث يريد، "نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ" رحمة ربنا التي تجلت في كل أقداره، "وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"، صفة الإحسان في سيدنا يوسف هي مفتاح نجاحه. ثم يذكرنا ربنا بما هو أهم وبما يجب العمل له، وهو الآخرة، "وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" بالرغم من رفعة المكانة التي وصل إليها سيدنا يوسف، إلا أننا لا يجب أن ننسى أن أجر الآخرة للمتقين خيرٌ وأبقى.

أصبح الآن سيدنا يوسف مسؤولاً عن خزائن مصر حفيظاً عليها، في أعلى مراتب الدولة، هل هناك اختبارات وابتلاءات أخرى، نعم، اختبار الكرسي وما يفعله بكل من يجلس عليه، هل سيظل على إحسانه وتواضعه وطاعته لله تعالى، أم ستغيره السلطة وتذهب به إلى عكس هذه الصفات؟

الامتحان الخامس لسيدنا يوسف وهو ابتلاء التمكين من السلطة:

يقول تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾)

أول مشهد، سنقف عنده "فَدَخَلُوا عَلَيْهِ" إنه يسمح للعامة والغرباء والمحتاجين أن يدخلوا عليه مباشرة يسألونه حاجتهم، نعرف جميعاً تمام المعرفة أن هذا خلق عالي جدا وتواضع حقيقي لا يتواجد بسهولة عند أى من المسؤولين.

ثاني مشهد، يشهد بنجاحه في استقبال قدر الله تعالى بالحكم والتمكين.. أنه قال: "أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" يوفى الكيل، يزن بالحق والعدل وزيادة، وهذا أيام المجاعة رغم قلة المعروض وزيادة الطلب، ولا يوجد مسؤول فوفه يراجعه ولا يجاسبه، يتقي الله تعالى وحده، ولا ينتظر من يشكره، هذا درس لكل مسؤول في بيته وفي عمله وفي حركة حياته كلها، يعطي كل ذي حق حقه ويزيد إن استطاع، إنه حسن استقبال ابتلاء الله تعالى بالمسؤولية والتمكين.

كما أن جملته "وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" تدل على حسن استقباله لقدر الله له بالعز والسلطان، إنه لا يعطي الناس حقهم وزيادة فقط، لكنه أيضاً يُصَيِّفُهُمْ كأحسن ما تكون الضيافة، لقد استقبل قدر الله بالحكم والتمكين بأحسن استقبال وهو خلق العدالة، والكرم والتواضع والاحسان.

لكل هذه الأخلاق العالية، لما قدم اخوته في عام المجاعة يطلبون المساعدة، يطلبون القمح لأهلهم، ثم دبر سيدنا يوسف أن يُتقى معه أخوه قالوا له: "قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ" إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ..". لقد وصفوه بالإحسان، صفة الإحسان ظهرت لهم مما سبق من أفعاله وما قدمه لهم من عطاء، بالرغم من مكانته العظيمة، إلا أنه كان من المحسنين في المعاملة والعطاء، وظيفته العليا وتمكُّنه وسيطرته وعلو قدره لم يغيروا من أخلاقه الجميلة.

ثم لما ظهر الحق، وأظهر حقيقته أمام إخوته وأنه أخوهم الذين حاولوا قتله، هنا موقفان رائعان فيها حسن استقبال لأقدار الله تعالى، أحدهما لأخوة سيدنا يوسف، والآخر لسيدنا يوسف.

الموقف الأول هو لإخوة سيدنا يوسف حينما استقبلوا ظهور الحقيقة استقبال سليم يحبه الله تعالى، لما تبين لهم الحق، وتبين لهم أن الذي يقف أمامهم هو أخاهم الذي أخطأوا في حقه، بمنتهى السرعة والصدق والوضوح، اعترفوا بخطئهم واعتذروا عنه وطلبوا الاستغفار لهم، " .. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَمْنَا وَاللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ .." يعنى والله لقد فضلك الله علينا، وقد كنا مخطئين فيما فعلناه.

هذا موقف راقى واستقبال ممتاز لقدر الله تعالى بانكشاف الحقيقة، لقد كان من الممكن أن تأخذهم العزة بالإثم ويرفضون الاعتراف بالخطأ، يستطيعوا أن يقولوا مثلاً: (ده أنت إلى اتزحلقت ووقعت فى البير.. محمش جه جنبك.. وحاولنا نطلعك معرفناش.. نعمل إيه يعنى..)

أو ممكن يجعلوا أباهم هو الغلطان، (حب أبونا الزايد ليك ضغط علينا وهو إلى خلانا نعمل كده..)

العديد من الأعداء كان من ممكن أن يردوا بها حتى لا يعترفوا بخطئهم، لكنهم اعترفوا سريعاً وبوضوح، إن مثل هذا الاعتراف في حاجة لصفتين إيمائيتين، لن يفعله إلا من يتصف بهما، إنهما الصدق والتواضع.

إن الإنسان الذي يتصف بالكذب من الصعب عليه أن يعترف بالخطأ، والذي يتصف بالكبر يستحيل أن يعترف بالخطأ. إن هؤلاء الإخوة وإن كانوا سقطوا في امتحان وقدر حب أيهم لأخيهم الصغير، إلا أنهم نجحوا في امتحان ظهور الحقيقة واعترافهم بذنبهم، فسارعوا بالاعتراف والتأسف وطلب المغفرة.

إن المسلم إن أساء استقبال قدر الله في موقف، ينتبه ويعود بسرعة لما يظهر له خطؤه فيعترف ويتوب ويستغفر، حتى ينجح في الملحق، والحسنات يذهبن السيئات.

الموقف الثاني: لسيدنا يوسف لما سارع هو أيضاً بقبول اعتذارهم، فنجح في استقبال هذا القدر، يقول تعالى على لسان سيدنا يوسف: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).. يعني لا عتاب ولا ملامة، ودعا الله تعالى أن يغفر لهم.

سيدنا يوسف الآن في قمة نجاحه، بعد كل ما مر به، ألقى بالبئر ليموت أو يأخذه أغراب يفعلون به ما يشاؤون، فأخذه وبيع كعبد بمصر واشتراه العزيز، لبث لديه سنين وتعلم حتى آتاه الله الحكم والعلم، ثم أعجبت به امرأة العزيز وراودته عن نفسه فاستعصم، فأدخلوه السجن ظلاماً وعدواناً ولبث به بضع سنين، ثم تذكره أخيراً واستعانوا به لتفسير رؤية الملك، فأعجب الملك باستقامته وعلمه، فطلب منه سيدنا يوسف أن يستخدمه حتى ينقذ البلاد من السبع العجاف، فعينه وزيراً للخزانة والتخطيط والزراعة، كان عزيز مصر، كأنه رئيس الوزراء، ثم ضم له أخوه، وحضر إخوته من الشام واعترفوا بخطئهم في حقه، واستقدم أبوه وأمه وأهله كلهم من الشام وأقاموا معه بمصر.

بعد هذه المسيرة الطويلة لسيدنا يوسف المليئة بالأحداث العظيمة، ما هو القانون الإلهي الذي يجمع كل هذه الأحداث وكل هذه النجاحات في استقبال أقدار الله تعالى؟

هو قانون واضح جدا ورائع جدا ذكره سيدنا يوسف عليه السلام قال فيما يخبرنا به رب العالمين: "قَالُوا أَلَمْ نَكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيُصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ".

هذا القانون الإلهي مفتاح النجاح، " إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيُصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " هذا هو القانون الذي به اهتدى سيدنا يوسف على مدار حياته، والذي به ضرب لنا أروع الأمثلة في حسن استقبال الأقدار، التقوى والصبر نتيجتهم الاحسان، التقوى هي مخافة الله تعالى، هي أن أراه عند كل حركة من حركات حياتي، هي أن أحيا وأنا موقن أنه يراني ويسمعني وسيحاسبني، ونتيجة التقوى أن أتقى أن أفعل ما لا يرضاه، وأن أفعل ما يحبه ويرضاه، حتى لو لم يرني أحد ولن يشكرني أحد على فعل الخير و لن يعاقبني أحد على المعصية، لكن يكفيني أن الله تعالى يراني ويسمعني وعليم بي، هذه هي التقوى.

ومع التقوى يأتي الصبر، ما هي أهمية الصبر هنا، إني بعد ما أتقى الله تعالى وأتخذ الموقف السليم واستقبل قدره الاستقبال الذي يحبه، اصبر واستمر على هذا الموقف، فالتقوى معناها أخذ الموقف السليم والصبر معناه الاستمرار على هذا الموقف مهما حدث ومهما كانت الضغوط.

وهنا ملحوظة هامة، إن الصبر ليس الانكفاء على النفس وتحمل الآلام والضغوط في هدوء واستكائة، هذه صورة مشوهة للصبر، كل موقف وله الصبر الإيجابي الذي يناسبه، صبر سيدنا يوسف في مرحلة العبودية أنه استمر يتعلم كل ما استطاع تعلمه، وصبره في قدر امرأة العزيز هو أنه استمر في الرفض القاطع والدائم لارتكاب الفاحشة، وصبره عند قدر السجن أنه استمر على حسن الخلق والاحسان، وصبره عند تولى منصب الوزير أو العزيز هو أنه استمر في إقامة العدل والتواضع وسماع شكوى الناس والعمل على التفاعل السليم معهم.

فكل موقف في حياة المسلم له تقواه وصبره، فمثلاً التقوى عند العمل اتقانه وعدم قبول المال الحرام، والصبر يعني الاستمرار على هذا الخلق مهما ضغطت عليه الظروف والحياة والزملاء. والتقوى عند التعامل مع الزوجة والأهل هو حُسن الخلق، والصبر على الاستمرار على هذا الحُسن مهما قابل من ظروف ضاغطة تدعوه لتغيير أخلاقه.

إننا نجد أمثلة في الحياة نرى فيها المسلم يأخذ موقفاً سليماً رافضاً للفساد والظلم والرشاوى.. فيؤدى موقفه إلى سوء حالته، ينقلوه أو يجرموه من الترقية أو من المكافآت، فيبدأ يتساءل في ضجر وبقا صبر، ويقول: (أُمَلَّ فِين مَكافَأة رَبِنَا عَلَي مَوْقِفِي دِه) لأ حضرتك وقفت عند النصف الأول من القانون ولم تر النصف الثاني، (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) لأن حسن الصبر معناه عظيم جداً، معناه اليقين الكامل بالله تعالى وحسن الظن به والثقة في حكمته وقدرته، إن من يتصف بهاتين الصفتين، التقوى والصبر، هو من المحسنين، وبقيناً وحتماً ربنا لن يضيعه وسوف يجزيه الجزاء الأوفى.

أولاً: الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم أقدار الله تعالى وذلك من خلال كل شخصية

## (١) سيدنا يوسف عليه السلام

أخبرنا ربنا باختياراته المختلفة وأفعاله في مواجهة الأقدار التي قدرها له، قدرها سبحانه بعلم وحكمة، واستقبلها سيدنا يوسف بتقوى وعمل وحسن خلق وصبر فجزاه الله تعالى جزاء المحسنين.

نجح في استقبال الأقدار التي تسببت له في ظلم يَبين لم يكن له أي يد فيه، أول قدر أعتقد كان أقسى قدر عليه وهو محاولة إخوته قتله، مشاعر بالحزن والمرارة والقهر والخوف والرعب والألم، أشد ألم أن يكون أقرب الناس للإنسان هم أكثر ناس ظملاً له، مع شعوره بضعفه أمامهم وقلة حيلته ووحدته، وهو عليه السلام لم يحاول الرجوع للانتقام واخبار أبيه بما فعلوه، لكنه آثر الابتعاد والسير في الطريق الذي فتحه له رب العالمين يقيناً في علم الله تعالى وحكمته ورحمته..

لقد أحسن استقبال أقداره كما عرضناها، واستقبل كل قدر بالإحسان الذي يليق به، فاستقبل قدر العبودية بالإحسان، واستقبل قدر الغواية بالإحسان، واستقبل قدر السجن بالإحسان، واستقبل قدر لجوء الملك له لتفسير المنام بالإحسان، واستقبل قدر التمكين والسلطة بالإحسان، واستقبل قدر قدوم اخوته الذين بالغوا في ظلمه إلى حد محاولة قتله، بالإحسان، ثم أحسن استقبال كل أقدار الله تعالى ورضى عن كل شريط حياته بهذه الخاتمة.. يقول تعالى: **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجُودًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾** هذه الآية تلخيص للأقدار بالنعم التي قدرها له رب العالمين، ذكر النعم ولم يذكر الشدائد، خوفاً من أن يكون ذكرها يحمل نوع من أنواع الشكوى، لكنه ذكر النعم التي آلت إليه بعد الشدائد، ثم نرى رضاه وفهمه لأقدار الله تعالى لما وصفها بالإحسان **"وَقَدْ أَحْسَنَ بِي"**، ثم باللفظ **"إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ"**.

كل هذا لأنه موقن أنه سبحانه عليم حكيم، "إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"، ثم ختم بهذا الدعاء الذي كله احسان، (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِنِّي بِالصَّالِحِينَ)، يذكر نعم ربنا عليه ويحمده على أن آتاه الملك الذي هو آية وعجيبة، فبعد العبودية والسجن، يأتيه الله تعالى بالملك والتمكين ويرفعه إلى السلطة العليا. ذلك لكي نتعلم ونؤمن ونوقن بالقانون الإلهي، أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وأمر الله تعالى هو الخير المطلق لعباده، إذا آمنوا به وأحسنوا استقبال أقداره، يحمده على أن آتاه الملك وآتاه القدرة على العلم والفهم وحسن النظر في الأمور وحسن الحكم عليها، ثم يعقبا بالثناء على رب العالمين وذكر ملكه فهو فاطر السماوات والأرض، ثم النتيجة المتوقعة من المؤمن لما يوقن بالله تعالى خالقاً رازقاً علماً حكماً، أن يكون الله تعالى هو وليه، أنت ولي في الدنيا والآخرة، يعنى أنت القريب منى وأنت من أواليه أي أستند عليه وأتبعه وأستجيب له، ثم أتبع كل هذا الوصف الجميل لحياته ولعلاقته بربه بالدعاء الخاشع الذى يحمل حسن الخاتمة التي يرجوها كل مؤمن.. تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِنِّي بِالصَّالِحِينَ.

وما سبق يمكننا أن نلخص ما تعلمناه من أقدار الله لسيدنا يوسف واستقباله لها:

العبودية والابتلاءات ليست نهاية، بل وسيلة للتمكين واكتساب العلم والخبرة.

الاستقامة تحت الإغراء والفتنة تصنع الإنسان القوي أخلاقياً وروحياً.

الصبر في المحن يجعل الإنسان يكتسب رؤية أعمق ووعياً أكبر.

العلم والعمل معاً يؤديان إلى التمكن والحكمة، وهي الغاية الكبرى لكل مؤمن يسعى لفهم حكمة الله في حياته.

إرادة الله هي الغالبة دائماً، مهما حاول البشر التدخل أو التدبير بشكل خاطئ، فإن مشيئة الله وحدها هي التي تتحقق.

## (٢) إخوة سيدنا يوسف

رأينا سقوطهم الشنيع أمام قدر الله لهم بمحبة أبيهم لأخيهم الصغير، فبدلاً من أن يتقربوا لأباهم بالمودة وحسن الخلق، قرروا أن يتقربوا إليه بقتل أخيه!!

لماذا لم يتقربوا لأبيهم بفعل ما يحبه والتودد إليه وحسن مصاحبته؟ لأن ذلك هو الطريق الصعب الذي يحتاج الكثير من مجاهدة النفس وتغييرها للأحسن، لكن الطريق الأسهل الذي لن يكلفهم مجاهدة أو تغيير هو قتل أخاهم، إلى هذا الحد الإقرار بالحاجة للتغيير ثم جهاد النفس وتطويعها لحسن الخلق، طريق صعب وشاق، القتل أسهل منه وأسرع!!

يقول تعالى: **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾** العنكبوت. جهاد النفس في مرضاة الله تعالى وفي سبيله، أساه جهاداً لما يتطلبه من مجهود وبذل وصبر، طريق يبدأ مع وعى الإنسان وإدراكه حتى مماته.

إخوة يوسف اخطؤوا في استقبال هذا القدر، لكنهم نجحوا في استقبال قدر ظهور الحقيقة وظهور كذبهم وانكشاف محاولتهم قتل أخوهم، فقبلوا هذا القدر بالتوبة والاستغفار والاعتراف بفعلتهم وطلب المغفرة.

### (٣) امرأة العزيز

سقطت سقوطاً مروعاً أمام قدر تسلطها على إنسان أضعف منها ولا يملك القوة التي تملكها، شاب أمها طول الوقت فيه كل المقومات التي تجعلها تحبه وترغب فيه، ولم تتخذ أي قرار بكبح جماح شهواتها، لكن أطلقت لها العنان لأقصى الدرجات، فسقطت في هذا الابتلاء.

ثم نجحت أمام قدر الله تعالى لها بالشهادة أمام الملك، فصدمت وبرتت سيدنا يوسف بالرغم من أن هذا الصدم شديد الصعوبة عليها كروجة وكامرأة، لكنها اجتازته بنجاح.

### (٤) النساء اللاتي كن معها

بالرغم من أنهم سقطوا في الامتحان لما أزروها في موقفها الخاطئ من سيدنا يوسف، إلا أنهم نجحوا لما شهدوا بالصدق والحق.

### (٥) القاضي

نجح في امتحان وقدر الحكم في القضية التي عرضت عليه بين امرأة العزيز وفتاها سيدنا يوسف، حكم بالحق رغم أنه من أهلها، ورغم أن سيدنا يوسف عبد وهي السيدة التي لها المكانة، إلا أنه كان قاضياً نزيه عادلاً نجح في امتحانه.

### (٦) العزيز

بالرغم من إنه نجح في قدر وامتحان وجود سيدنا يوسف عنده كعبد، فأحسن معاملته وأمر زوجته بإكرامه والإحسان إليه، إلا أنه سقط سقوطاً مروعاً في قدر مواجته لموقف زوجته من الشاب يوسف، لم يهتم بإصلاحها ومنعها من اتباع شهواتها، لكنه تعامل مع الأمر بلا مبالاة، ثم لما رأى إصرارها على غواية فتاها، آثر حبسه وهو البريء على أن يتعامل مع فساد أخلاقها.

### (٧) الملك الذي رأى المنام

نجح في قدره بالملك والتمكين، فأقام الحق لما استجاب لسيدنا يوسف في إعادة فتح القضية وسمع للشهود وأقر براءته، رغم أنه عبد والذين اتهموه أسياء، إلا أنه جمعهم وسمع للجميع بسواسية وأقام العدل.

ثم نجاحه الباهر أمام امتحان اختيار أصحاب الكفاءات في القيادة وتحمل المسؤولية، فلم يختار للمنصب أحداً من قومه أو أهله أو عشيرته أو أصدقائه، إنما اختار من وجده الأكفأ وإن كان عبداً، نجاح رائع في ابتلاء الحكم والسلطة.

سنقوم الآن بتصور وضع معاكس لحياة سيدنا يوسف يفسر لنا حقيقة أقدار الله تعالى:

سنبدأ بتخيل أن سيدنا يوسف لم يواجه أقداره بما فعل، بل واجهها بصورة عكسية أو مختلفة، لو قضى فترة العبودية في تدمر وسخط وغضب من الدنيا وما حدث له فيها، وهذا الغضب أفقده القدرة على الانتباه للعلم الذي يأتيه وهو في بيت العزيز، ونتيجة لشعوره بالفشل والنقص ورغبته في الحصول على وضع أفضل مما هو فيه، فسنجده يستجيب لسيدته لارتكاب الفاحشة، ولو حدث ودخل السجن لما ضبطه زوجها متلبساً، فتعامل مع زملائه في السجن بغضب وحقد وسخط على أحواله وعلى الدنيا وعلى حظه السيئ الذي جعل زوجها يأتي في هذه اللحظة، فلم يُرد زميله بعدما خرج من السجن أن يتذكره أو يذكره بأي خير. سيظل يتنقل من حال سيئ لأسوء، ويظل يعاني ويتألم ويقاسي، لكن المضحك في الأمر أنه مع أفعاله هذه، سيتهم ربنا وأقداره والدنيا والناس أنهم ضده وأن حظه هكذا سيئ ولا يعرف لماذا!!!

إن هذه المفارقة تبين وتوضح كيف أن أقدار الله تعالى كلها خير، لكن لا يحصل منها الإنسان على هذا الخير إلا إذا أحسن استقبالها بما يحب الله تعالى ويرضاه، نفس هذه الأقدار لو أساء استقبالها، فإنها تتحول إلى وبال عليه وإلى معيشة ضنك في الدنيا والآخرة. وللعلم، حياة كل منا تحمل أقداراً مثل أقدار سيدنا يوسف، وتحمل من لطف الله تعالى ورحمته وحكمته مثل ما في قصته، لكن سنجد من أحسن استقبال أقدار الله فارتقى، وسنجد من أساء استقبالها فهبط للدرك الأسفل.

ثانياً: الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم أقدار الله تعالى وذلك من خلال آيات الله تعالى

## (١) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ

رب العالمين بعلمه حكمته وقدرته، جعل قدر انتقال سيدنا يوسف من الحرية إلى العبودية تمكين ونقطة انطلاق لمستقبله!! هل كان يتخيل ذلك؟ بالطبع لا.. لكنه ماذا فعل، اجتهد فيما أقامه الله تعالى فيه، برضا وهدوء واثقان، وتعبد الله واستقام على أمره، فتعلم كل العلم الذي أتيح له، واستوعبه وحفظه، مع أنه لم يكن يرى أي إشارة ولا أمل أن يستخدم هذا العلم، لكنه يعلم أن هذا ما يحبه الله تعالى ويرضاه منه، فإنما يخشى الله من عباده العلماء، فكانت هذه الإجابة الممتازة لامتحانه وابتلائه بداية نجاحات متتالية.

ونحن عندما يقدر الله تعالى لنا قدراً لم تنسب فيه بأي صورة، يضعنا في موضع شديد الصعوبة، لا نرى فيه مخرج، ولا نرى فيه أي خير، لا بد أن نتعلم من سيدنا يوسف، فنحسن استقبال هذا القدر، فنبدل فيما نحن فيه كل جهمنا بالصورة التي تليق بكل موقف، برضا وهدوء واثقان، ونعبد الله ونستقيم على أمره، نستقبل هذا القدر باستغلال كل فرصة للكسب الشريف، نكتسب علماً، نكتسب قدرات جسدية، نكتسب أخلاقاً وصفات، نكتسب لغات، نكتسب مهارات، نكتسب أصحاباً وزملاء، نكتسب كل كسب يُتاح لنا في ظل هذه الظروف، يقيناً أن الله تعالى يجب منا ذلك وأنه لن يضيعنا أبداً، لأن الذي نعرفه ونراه بعلمنا القاصر ليس هو الحكم

النهائي، بل الحكم لله العليم الحكيم القدير، هو وحده من يستطيع أن يُقدر للمؤمن الحصول على أعلى مكسب، بينما يظهر للعين المجردة أنه في قمة الخسارة، إذا أحسن المؤمن استقبال أقدار ربه ونجح في امتحاناتها.

## ٢) وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ

إخوة سيدنا يوسف فعلوا ما فعلوا ونجحوا في تحقيق غرضهم من إبعاد سيدنا يوسف عن أبيه، وأصبح حب أيهم لهم وحدهم، وظنوا أنهم بهذا قد غلبوا، لكن الله تعالى هو الغالب ولا غالب سواه، ما يدبره من نصرة المظلوم هو ما سوف يتم، دبر ما لم يحتسبوا له، فكأنه وعلمه ورفعته، وأحوجهم إليه وأعادهم إليه وهو عزيز مصر.

يمكن أن تتصور شعورهم بالزهو والانتصار عندما نجحوا في مخططهم وأبعدوا أخاهم وفاضوا بوجه أيهم، ثم تتصور شعورهم بالمهانة والذلة بعد افتضاح خطتهم الدنيئة، هذه هي غلبة الله تعالى للمظلوم التي يجب أن يخشاها كل ظالم.

لقد أساءوا استقبال قدر الاخوة وقدر حب أيهم لأخاهم الصغير، فجاؤوا بعد سنين ليواجهوا نتيجة فشلهم في هذا القدر وهذا الامتحان. فأصحاب القوة والسيطرة على من هم أضعف منهم، يجب أن يعلموا أن أي تدبير سيئ سيرده القوي العزيز على الظالم، فأمر الله تعالى هو النافذ، وهو لا يجب الظالمين.

## ٣) مَعَادَ اللَّهِ

أول مواجهة لامتحان ارتكاب الحرام هي مَعَادَ اللَّهِ، هي أول كلمة واجه بها سيدنا يوسف الدعوة لارتكاب المعصية، إنها تعني ألتجئ إلى الله وألوذ إليه، إنها المسارعة إلى حمى الله تعالى، إنها تذكير النفس بالجهة العظيمة التي يسارع إليها عندما تتم دعوته لارتكاب المحرمات، إنها بداية النجاح في امتحان وقوف المعصية على باب المسلم.

وفي الخاتمة نذكر أن سيدنا يوسف لم تتوقف في حياته الابتلاءات رغم نجاحه في امتحان تلو الآخر، فلا يجب على من يستقيم على أمر الله أن يعتقد أن هذه الاستقامة ستمنع عنه مختلف الابتلاءات، لأن الغرض من الحياة اظهار الأحسن عملاً من خلالها، فالأقدار والامتحانات لا تتوقف للنجاح في احداها، لكنها كسنين الدراسة، تنتهي من امتحان فتنجح فتنترقي لما بعده، فتمتحن فتنجح، فتنترقي لما بعده، وهكذا.

وقد كان من دلائل نجاح سيدنا يوسف ذكره لنعم الله تعالى عليه على مدى حياته، وأدبه واعترافه بفضل الله عليه، رغم كل ما تعرض له من محن، لكن المؤمن يرى في أقدار الله وما يتعرض له من شدائد، يرى حكمة الله ورحمته ولطفه، يقول تعالى على لسان سيدنا يوسف: **وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾**

# بِقَرَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

جاءت أول قصة في القرآن الكريم وهي قصة بقرة بني إسرائيل في أول سورة به حتى أنها سميت باسمها وهي "سورة البقرة"، وقد يدلنا ذلك على أهميتها وما بها من دلالات ودروس.

سنستعرض الآيات التي ذكرت هذه القصة الهامة، وسنقسمها ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى القصة.

المجموعة الثانية السبب.

المجموعة الثالثة النتيجة.

نبدأ بالمجموعة الأولى وهي القصة، يقول تعالى: **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصَ وَلَا يَكَرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لُونُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَهْرَ تُشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ البقرة.**

تسرد هذه الآيات الكريمة قصة بقرة قوم سيدنا موسى، ومما يجب أن نأخذه في اعتبارنا ونحن نتدارسها، أن بني إسرائيل لا يقرؤون القرآن ولا يتعبدون به، لذلك فإن هذه القصة هي لنا، نأخذ نحن منها العبرة، فنحن المطالبون بدراستها ومعرفة دلالاتها والعمل على تجنب السيئ منها ومتابعة الحسن.

وبسورة البقرة وحدها نحو مائة وخمسة عشر (١١٥) آية تتحدث عن اليهود، وهو ما يمثل نحو ٤٠% منها، وذلك للتأكيد على الاهتمام بدراسة أحوالهم والاعتبار منها، وهذا يتماشى مع حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي أخبرنا بأننا كمسلمين سوف نتبع خطوات اليهود خطوة خطوة، لذلك كانت دراسة أحوالهم هامة جداً لنا لنحذر من تتبع خطواتهم. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: " لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنْ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ صَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَصَنْ " رواه البخاري.

في هذا الحديث ينبها رسول الله عليه الصلاة والسلام ويحذرننا من الاتباع والتشبه باليهود والنصارى (شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ) يعنى كمال المتابعة، تفعلون أفعال السيئين منهم وتتصفون بصفاتهم من ارتكاب الفواحش وأكل الحرام والعنصرية والتجارة بالدين وكراهية المصلحين وعدم التناهي عن المنكر..

ونقف عند قوله: "حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ صَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ" لماذا جحر الضب؟ لأن الضب يجعل لجحره فتحة واحدة، فجحره مملوك ميمت لمن يدخله فلو أغلقت عليه هذه الفتحة فسيموت بداخلها، بينما معظم الحيوانات أصحاب الجحور يصممون لجحورهم أكثر من فتحة حتى يهربوا منها وقت الحاجة، كما أن الفتحة الواحدة جعلت جحره عفن فاقد للتبوية، والباحثون وجدوا أن جحر الضب إلى جانب الإمكانية العالية للهلاك فيه، يجمع بين القدرة الشديدة، والضيق الشديد؛ فلا نجاة فيه ولا

جمال، وكان رسول الله يريد أن يقول لنا، أنكم ستتبعون سنن وأفعال السيئين من اليهود والنصارى وتسيرون علي خطاهم خطوة خطوة حتي الشيء الواضح فيه الهلاك والخبث، ستفعلونه وتتبعوهم فيه رغم وضوح مملكته وخبثه.

إذا عرفنا: لماذا يسرد لنا ربنا قصص بنى إسرائيل في مئات الآيات بالقرآن؟

إنه لكي نأخذ العبرة ونتعلم من مواقفهم الدروس، حتى لا نفعل مثلهم فنلاقي مصيرهم من اللعن والإبعاد عن رحمة الله تعالى بالرغم من أنهم كانوا مسلمين في عصرهم كما نحن الآن، فالله تعالى فضلهم على العالمين بأن أنزل عليهم التوراة التي هي هدى ونور، لكي يتبعوها فيستحقون الأفضلية، لكنهم لم يقبلوا هذه الأفضلية، وأساءوا استقبال أقداره، فعصوه وتمادوا في العصيان حتى لعنهم الله تعالى وأقصاهم عن رحمته، فلا أفضليه إلا لمن تبع هداه وأطاعه، يقول تعالى: "لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِيرًا ﴿١٢٤﴾" النساء.

فالله تعالى لا يأخذ بما هو مذكور بالبطاقة الشخصية في خاتمة الديانة، ولا بما يدعيه الإنسان من أقوال، إنما يأخذ بالعمل، من يعمل سوءًا أيا كان ديانته، مسلم أو غيره، سوف يحاسب عليه بما يستحقه من عقاب في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لا يجابي أحداً ولم يعط صك غفران لفئة دون أخرى، فإذا كنت مسلماً فلن تدخل الجنة إلا بالعمل الصالح، فمن يعمل صالحاً وهو مؤمن، فذلك عند الله هو الفائز وهو من أصحاب الجنة.

يقول تعالى: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾" أمر رب العالمين رسوله سيدنا موسى أن يبلغ قومه أنه يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فالأمر واضح أنه أمرٌ مباشرٌ من رب العالمين ولم يصدر عن سيدنا موسى، وبدلاً من أن يكون ردهم سمعنا وأطعنا، ويسارعوا بذبح بقرة، أي بقرة، وصفوا أمر الله الذي بلغهم به رسوله بأن فيه إهانة لهم والمقصود منه السخرية منهم، فقد كان من وجه نظرهم أمرٌ لا يتفق مع منطقهم ولا مع ما كانوا يتوقعونه، فاتهموا سيدنا موسى بالجهل، فكان رده "أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين"، لأنه علم أن مرادهم من ردهم هذا اتهامه بالجهل و الادعاء بما لا يعلم، وردهم هذا يدل على سوء الأدب مع الله ومع رسوله.

وقد أدى هذا مواقف أكثر سوءاً، فبدأ جدالهم، وبدأوا بسلسلة من الأسئلة المتكررة، متظاهرين بالفضول، يقول تعالى: "قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ.." بعدما نفى سيدنا موسى أن أمر الله تعالى جمهالة، وأنه حق، بدأوا في الاستفسار عن الأمر.

هل من حق المؤمن أن يستفسر عن الأمر الذي أمر رب العالمين به؟ نعم لو الأمر أشكل عليه ولم يفهمه أو كان له عدة تأويلات أو أشكال مختلفة في التطبيق. لكن هناك فرق أساسي بين تساؤل المؤمن وغيره، المؤمن يسأل بصدق حتى يعمل ويحسن العمل، فبمجرد ما يحصل على الإجابة السليمة يسارع إلى العمل بحب وطاعة، أما تساؤل غير المؤمن فيسأل حتى يتفلسف من العمل، يظل يضع العراقيل والمشاكل أمام كل حل وكل إجابة، وأحياناً يقضى حياته كلها يتساءل من دون أن يبحث بصدق عن الإجابة!

أول تساؤل لبني إسرائيل كان: **".. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ.."** ثنين الألفاظ حقيقة ما في القلوب، قالوا ادع لنا رَبَّكَ !! إنهم يرون أن الله رب موسى وليس بربهم، إيمانهم إيمانٌ سطحيٌّ مشوه لا توجد به معرفة حقيقية ولا يقينية، إيمان من أجل وضعهم الاجتماعي وصورتهم بين الناس، فهم مضطرون أن يجاروا سيدنا موسى فيما أمرهم به، يقول تعالى: (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾) البقرة. هذه صفات المنافقين، أطلقها سبحانه على كل من يتصف بها من أي دين، إنهم بالرغم من قولهم أنهم مؤمنون بالله وباليوم الآخر، إلا أن أفعالهم تدل دلالة قاطعة على عدم إيمانهم بالله تعالى وباليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب، ويعتقدون أنهم أدكى من المؤمنين لأنهم خدعوا حينما أظهروا لهم الإيمان والتقوى، بينما الإيمان لا يجاوز حناجرهم، أخبرنا ربنا عن سبب تمكن هذه الصفات منهم، إنه الكذب، يستسهلون ويستحلون الكذب حتى مرضت قلوبهم وأصبحت لا تقبل هدى الله تعالى ولا تشعر به.

سألوا وقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي.. كان من الممكن لسيدنا موسى أن يقول لهم ربنا قال لكم بقرة، ادجوا بقرة وكفى، لكنه لأدبه الجم ولأنه صدقهم أنهم يريدون حقاً المعرفة، أجابهم بتفصيل للأمر، **".. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون.."** صفة هذه البقرة أن سنها معتدل، **"لَا فَارِضٌ"** ليست بالكبيرة، **"وَلَا بِكْرٌ"** ليست بالصغيرة، فافعلوا ما تؤمرون. توجيه نبوي واضح وصرح، لأنه بدأ يشعر أنه تساؤل ناجم عن الرغبة في التفتل من الأمر، لكن هذا التوجيه النبوي تجاهلوه، وكان التساؤل الثاني: **"... قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا .."** مرة أخرى ادع لنا رَبَّكَ، فشعورهم الحقيقي أنه ليس بربهم، بل هو رب موسى، وأنهم يفعلون ما يفعلون لأن موسى القائد أمرهم وليس لأن الله تعالى هو الذي أمرهم، لذلك تركوا الأمر الإجمالي الأصلي وبدأوا يتكلمون في تفاصيل لعلها تعطل تنفيذ الأمر أو تكون سبباً للتفتل منه كلية، أو تؤدي لكشف حقيقة الخدعة التي يعتقدون أن سيدنا موسى يقوم بها.

رجع سيدنا موسى لربنا سأله فأجابه **".. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لُونُهَا لَوْنُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ.."** هي بقرة سنها متوسط كما في الإجابة السابقة، ثم إن لونها أصفر جميل تسر من يراها من جمالها.

هل يكفي هذا؟ لا.. اللجاجة والرغبة في التفتل من طاعة الأمر لن تجعلهم يستسلمون بسهولة، فلنضع عقبة ثالثة قد تساعدنا، فكانت ثالث وقفة وثالث عودة للتساؤل: **"... قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ .."** بعدما عرفوا عمرها ولونها، فلنأتي بسؤال عام قد يجعل تحديدها أكثر صعوبة!! لكن نلاحظ في آخر السؤال أنهم قالوا **"وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ"** ما شاء الله على الإيمان والتقوى، هذا مثل من يريد أن يظهر أمام الناس أنه متدين رغم أن أفعاله معاكسة لما أمر به الدين، فنراه يستخدم مصطلحات إسلامية معروف أن المتدينين يستخدمونها، لكي يُحسب من بينهم فيسمعون له ويأخذ مكانة ويحصل من ذلك على ما يريد.

هكذا فعل هؤلاء اليهود بهذه الكلمة **"إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ.."** فرد سيدنا موسى: **".. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا.."** صفة ثالثة للبقرة التي أمروا بذبحها، هي بقرة **"لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي"**

الْحُرْتُ"، لا تعمل في خدمة الأرض، لا تجر آلة الحرث ولا آلة سقى الماء، ثم إنها "مُسَلَّمَةٌ لَا شَيْئَةَ فِيهَا" يعني خالية من أي عيب، إنها مميزة وجميلة.

إذا صفتها أن عمرها متوسط ولونها أصفر فاقع ومُعززة غير مرهقة بالعمل في الأرض، وخالية من أي عيب. رغم أنه كان يكفهم ذبح أي بقرة، لكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ابتعدوا بسوء طويتهم عن الهدف الأصلي لأمر الله تعالى وهو المسارعة في الطاعة، والرغبة في مرضاته، كانوا قريبين جداً من عدم الطاعة، وأظهروا أقل درجات الإيمان، نفذوا الأمر بالضرورة لا بحب الله وصدق الطاعة، بينما هم الذين عليهم مدار القبول، يقول تعالى في لحوم الأضاحي: " لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَبَالُ التَّقْوَى مِنْكُمْ .." الحج.

يبين لنا رب العالمين أن لحوم الأضاحي لن تصل له ولن يأخذ منها، بمعنى اختاروا الأضحية المناسبة واذبحوها وأطعموا منها، ولا تستغرقوا في التفاصيل، إن الهدف مما يأمر به، هو ما يصله منكم مما في القلب من التقوى والمحبة والحرص على عمل يرضى الله تعالى عنه، وهذا في كل الأوامر والعبادات.

إذا كان المقصود من أمر رب العالمين لليهود إظهار مدى تقواهم ومسارعتهم في الطاعة ومدى معرفتهم بالله تعالى وحبهم وتعظيمهم له، لكنهم فشلوا في هذا الامتحان وهذا القدر فشلاً ذريعاً لما استقبلوا أمر الله تعالى بجهل وكبر ولحاجة، تركوا الأمر العام وأصروا على التفتل منه من خلال الخوض في تفاصيل ما أنزل الله بها من سلطان، فوصلوا إلى صفات صعبة ونادرة في البقرة المطلوبة، حتى وجدوها في بقرة وحيدة فذبحوها، " .. قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ " فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ "، من أجل أن يداروا على نفاقهم ورغبتهم في التفتل، قالوا " الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ " ، وكان كل ما سبق لم يكن حقاً!! وكان هذه الجملة تكفي لكي تلغي كل ما فعلوه وما قالوه في موقفهم السيء.

"فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ" (كاد) من أفعال المقاربة، يعني قاربوا ألا يفعلوا، كانوا أقرب إلى معصية أمر الله تعالى من طاعته، هؤلاء اليهود نفذوا أمر الله تعالى بصعوبة بالغة، استخدموا كل الحجج الممكنة، وتأخروا كل التأخير الممكن، وكانوا على وشك ألا ينفذوه، ثم نفذوه تنفيذ المضطر وليس تنفيذ المؤمن المحب.

#### المجموعة الثانية من الآيات "السبب"

أخبرنا سبحانه بالسبب وراء ما أمر به من ذبح البقرة، يقول تعالى: "وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَمَلَأْنَا ضَرْبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾"، تقول التفسير أنه كان هناك رجل ثرى قُتل ووجدوا جثته على مشارف قرية، وكان من المتعارف عليه أن القتل إذا وُجد على حدود قرية ما، فإن أحداً من أهلها هو من قتله، إلا أن يشهد خمسين من كبار رجال القرية أنهم ليسوا من قتله ولا يعرفون من قتله، فتم ذلك، فأصبح الأمر كأنه لا يوجد متهم ولا توجد أي أداة أو طريقة لمعرفة القاتل، وأصبح الكل يتهم الكل، وهذا معنى "وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا"، وكادت أن تقع فتنة كبيرة، فلما لجأ أهل القتل لسيدنا موسى من أجل أن يجد لهم القاتل، قال لهم اذبحوا بقرة، وحدث منهم ما حدث إلى أن ذبحوها، "وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" هذه الحادثة، هذا القتل وهذا الخداع والكذب

وهذه الاتهامات المتبادلة، كل ما حدث من أحداث سيئة، ثم كل ما حدث من استجاباتكم الأسوأ، سوف يُخرج الله تعالى بها ما كنتم تكتُمون من أمراض قلوبكم، "وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" هذه هي مهمة أقدار الله تعالى، الامتحانات والاختبارات، تأتي لنكتشف حقيقة أنفسنا، والتي نكتشفها من خلال رد فعلنا على أمر الله تعالى، ومشاعرنا حيالها، ومدى مسارعتنا في تنفيذها، إن الأوامر والنواهي الربانية الصغيرة والكبيرة، هي الامتحانات التي تبين لنا حقيقة ما في قلوبنا من إيمان أو نفاق.

"وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" تنطبق على كل الأحداث والأقدار التي نقابلها في حياتنا اليومية والتي تظهر حقيقة ما بداخل كل إنسان، وهذه الحقيقة هي التي عليها الحساب، إن الامتحانات تأتي طول الوقت، وقد تأتي بدون أن نتوقف عندها ونشعر أنها امتحان فننصرف فيها على طبيعتنا، فتظهر الأخلاق الحقيقية، تظهر في البيت والشغل والمدرسة والشارع والنادي والمطبخ، تظهر مع الجيران والأقارب، مع أصحاب السلطان ومع الناس الغلابة، كل هذه الامتحانات من رحمة ربنا بالمؤمن المنتبة لحقيقة الأقدار، لأن المنتبه والواعي بأفعاله والمدرك كيف يجب أن تكون استقبالات أقدر ربنا، لما يظهر له من نفسه إجابة خاطئة، يسارع بالتوبة والفعل الصحيح الصالح من قبل أن يُطبع على قلبه بما فعل، فلا يرى المنكر منكراً، ولا المعروف معروفاً.

ثم تأتي الآية التي تليها: "فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا" كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" أمر رب العالمين الحاضرين أن يضربوا القتيل ببعض من البقرة المذبوحة، فأحياه الله تعالى ليخبرهم بمن قتله، لكن لماذا كل هذه الخطوات لكي يحييه الله تعالى، إنه قادر على إحيائه بكن فيكون؟؟، إنها من أجل أن يُخرج ما كنتم تكتُمون، ليم الامتحان فينجح من ينجح ويسقط من يسقط، هل رب العالمين في حاجة لذب بقره لكي يحيي الموتى؟ بالطبع لا، لكن من يحتاج ذلك هو الإنسان الذي سيعالج هذا الموقف فيه مرض قلبي، فيشفيه منه إذا انتبه له وعالجه، أو يزيده مرضاً إذا تجاهله واستمر فيه.

فمثلاً هل الغني الكريم سبحانه الذي يملك خزائن السماوات والأرض في حاجة لأن ننفق على الفقراء والمساكين، ألا يمكنه هو أن يغنيهم؟، بلى يمكنه، لماذا أمرنا بالزكاة والصدقات والإنفاق في سبيله؟ من أجل أن يخرج حقيقة نفوسنا وحقيقة التقوى، لذلك سميت صدقة لأنها تبين صدق المسلم وصدق إيمانه، وسميت زكاة لأنها تُزكي النفس وتطهرها من الشح، فزكى كثير من الناس يحاولون التفتل منها مثلما فعل اليهود، وإذا أدوها يأدونها بأقل ما يمكن وبعد صعوبة، "فَدَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.." لهذا ربنا اشترط لقبول الصدقة أن تؤدي بطيب نفسه، وجعل كراهية العمل من صفات المنافقين الذين لا تقبل أعمالهم، يقول تعالى: (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾) التوبة. فمن أنفق بالكاد وبصعوبة، رب العالمين لن يقبلها، المقبول فقط من أداها ونفسه سعيدة وراضية بها، يعني من أدى العبادة على مثال "وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ" غير مقبولة، المقبول من يؤدي الطاعة عن حب وتعظيم وفهم.

فالآية: "فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا" كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" أظهرت حكمة الله تعالى من قدره، كذلك يحيي الله الموتى، بمثل هذه البساطة وهذه القدرة يحيي الله الموتى، رب العالمين يريدنا أن قضية البعث بعد الموت سهلة ويسيرة

عليه سبحانه، لأن هذه القضية - قضية الإيمان واليقين بالبعث والحياة بعد الموت - هي أساس حركة الحياة السليمة للمؤمن، فمن يؤمن حقاً بالبعث والحساب، تتسم حركته في الحياة بصفات مختلفة تماماً عما لا يوقن حقاً بذلك، تتسم بحسابته لنفسه، تتسم بالبعد عن المعاصي وخشية الله في السر والعلن، تتسم بحسن الخلق، وصفات كثيرة مذكورة بالتفصيل في كتابه الكريم.

ثم يقول تعالى: **"وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"**، مما يدل على أن هذه القصة نحن المعنيون بها، لو كانت لليهود، فستكون: ويريه آياته لعلهم يعقلون، لكن لأنه سبحانه موجه القصة لنا نحن المسلمون، فهو يريدنا أن نعقل ما فيها من دروس، وجاءت لَعَلَّ فِي لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، لأن لَعَلَّ تفيده التوقع والترجي في الأمر المحبوب، إذاً من حكمة قدر الله تعالى مما حدث، أن نرى آيات الله لنؤمن ونوقن بقدرته، لعل ذلك يؤدي إلى استخدام العقل في التعامل مع رب العالمين، العقل الذي يجعلنا نوقن بوجود الخالق، ونتعرف إلى صفاته، ونتعلم ديننا، ثم نمارس حياتنا بناء على هذا العلم.

يدعونا ربنا أن نعقل ونفكر وأن تكون قراراتنا وحركة حياتنا نابعة عن العقل وليس عن التقليد أو الجهل أو اتباع العادات أو اتباع الأهواء، ولو أن اليهود في هذه القصة كانوا يعقلون، لكانوا أحسنوا التعامل مع أمر الله تعالى، ولكننا اعتبروا من رؤيتهم لآيات الله، لكن التصرفات التي قاموا بها والكلمات التي علقوا بها على الحدث، لا تدل إلا على عدم التعقل الذي أدى إلى عدم الإيمان الحق وإلى النفاق.

#### المجموعة الثالثة من الآيات "النتيجة"

ماذا كانت نتيجة أفعالهم وأقوالهم..

يقول تعالى: **(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَجَّرُ مِنْهُ الْأُنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْتَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾** البقرة .

نبدأ بأول حرف في الآية لأن له دلالة مهمة.. **"ثُمَّ"** : حرف عطف وحروف العطف تفيده المشاركة بين المعطوف والمعطوف عليه. **"ثُمَّ"** هنا محممة جداً لأنها حرف عَطَفَ ما بعدها على ما قبلها، يعني ما بعدها مترتب على ما قبلها، ما الذي قبلها؟ موقف اليهود من أمر رب العالمين، ما الذي بعدها؟ قسوة القلوب، يالله، رب العالمين بين لنا أن التفتت من أمره عمداً وعن علم ودائماً، يؤدي إلى قسوة القلب، وقسوة القلب تعنى عدم الاستجابة الطبيعية لما يأتيه من علم ومعلومات ومواعظ وتذكير وآيات، الأرض قاسية بمعنى جافة ويابسة، مهما وضعت فيها من بذور لن تنبت زرعاً، فهنا قسوة القلب يعنى ذهبت منه العاطفة الطبيعية وفقد الخشوع لله تعالى وجف ويبس فلا ينبت استجابة لأى علم أو معرفة أو أمر الله تعالى، قسوة القلب التي هي أشد قسوة من الحجارة، حتى الحجارة قد تتفجر منها الأنهار، ومنها ما يتشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله، حتى الحجارة قد توجد بها حياة عن هذه القلوب.

وأيضاً حرف مُم بين لنا سبب قسوة قلوب هؤلاء، لأنه يدلّ على الترتيب مع التراخي في الزمن. يعني هذه القلوب تحجرت وفقدت الاستجابة الطبيعية لأمر الله تعالى، من مداومة التهرب من أوامره، أصبح طبع فيهم، كل أمر يأتيهم يتهبون من تنفيذه ولو اضطروا إلى عمله يكون غصباً ورياء الناس، ترتب على ذلك قسوة القلب، حتى أصبحت قلوبهم أقسى من الحجارة، مر عليهم زمن وهم في غفلة عن صفات الله تعالى وأسمائه، غفلة عن أنه عليم بذات الصدور وأنه سميع بصير قريب حسيب، مر زمن لم يتوقفوا ولم يتوبوا، كل أمر يأتيهم من رب العالمين يتحججوا ويجادلوا بالباطل ويكذبوا حتى يتفلتوا منه، وإذا اضطروا لفعله يفعلوه مضطرين، وربنا في آخر الآية أخبرنا بالسبب الذي أدى بهم لهذه الأفعال، يقول تعالى: "وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"، لقد اعتقدوا أن الله تعالى غافلٌ عما يعملون، غافلٌ عما في صدورهم من كراهيتهم لطاعته، غافل عن نواياهم حينما يدعون التساؤل بينما يريدون الجدال الفارغ والتفلة. مشكلتهم الحقيقية عدم معرفة الله تعالى، لا يستحضرون أنه تعالى سميع بصير عليم حكيم حسيب، يكتب ما يفعلون ويعلم حقيقة نواياهم وسيحاسبهم عليها في الدنيا والآخرة.

لهذا كان العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ودراستها والبحث فيها، هي لب المعتقد الإيماني الصحيح، فلا عقيدة صحيحة بدون البحث والاهتمام بمعرفة صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، ولقد أتت هذه الآية الكريمة في سياق القصة التي ذكرناها، يقول تعالى: "أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ" ﴿٧٧﴾ البقرة. تساؤل منطقي، ألا يعلمون الحقيقة، ألا يعلمون أن الله يعلم كل ما يسرونه بأنفسهم، وكل ما يعلنونه للناس، هل هم بهذا الغباء بحيث يتجاهلون هذه الحقيقة، إن من يتعامل في حياته على أن الله تعالى لا يعلم، قد أفسد حياته وقلبه وعقله، وأصبح من الخاسرين.

الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها:

الأولى: فَدَبَّحُوا بِهَا وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

الثانية: وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

الثالثة: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

## الأولى: فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

هذه الصفة تخرج من القلب ثم تعود إليه لتغذيه، بمعنى أن المسلم الذي يفعل الأمر الرباني بزهق وتكاسل وعدم رغبة، مع الاستمرارية على هذه المشاعر، يؤثر على قلبه ويجعله قاسياً صعب الاستجابة خالياً من الحب والخشوع والتعظيم، فيؤدى هذا القلب القاسي إلى زيادة البعد عن الله والتعود على أداء العبادات والطاعات بأسلوب "فذبحوها وما كادوا يفعلون"، وقد بين لنا ربنا أن أداء العبادات والطاعات بهذا الأسلوب غير مقبولة عنده تعالى، بل هي تزيد الإنسان بعداً عن الله تعالى، لأن أبعد القلوب عن الله القلب القاسي.

فبالرغم من أنهم ذبحوا البقرة فعلاً، إلا أن النتيجة كانت قلوب قاسية بعيدة عن الإيمان، ذلك أن ذبحها جاء بعد محاولات عدة للتفلت، هذه المحاولات أنبتت عن قلب خالٍ من الإيمان ومن معرفة الله تعالى، والله تعالى ينظر إلى قلب العبد، فإن كان فيه حب وصدق وتعظيم ومسارة لطاعته، تقبل العمل ولو كان قليلاً أو غير مكتمل التفاصيل، طالما بذل فيه المحب استطاعته، وإن كان فيه تجاهل وكبر وسوء نية وكذب، لم يقبله وإن أتمه هذا العبد.

## ثانياً: وَبُرِّئْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

نداء رباني وتوجيه في غاية الأهمية لسلامة إيماننا وسلامة دينانا وآخرتنا، أن نستخدم عقولنا، ديننا دين العقل والفكر والدراسة والعلم، ليس بدين الاتباع والوراثة بغير علم ولا فهم ولا دراسة، إن الاستخدام السليم للعقل أمر من رب العالمين لأنه الطريق الصحيح لمعرفة سببانه، ولحسن استقبال أقداره، ولو أنهم كانوا يعقلون ما تحجرت قلوبهم.

## ثالثاً: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

هذا هو الغذاء الصحيح والراقي والجميل للقلوب، معرفة رب العالمين، غذاء القلب وعلاجه في أن نوقن أنه ليس بغافل عنا، وأنه العليم الحكيم السميع البصير القريب الحسيب، وأنه في كل أقداره تتمثل كل صفاته العليا وأسمائه الحسنی، هذه أسماء وصفات لا بد من دراستها والتدريب على الحياة بها، إن مجرد معرفة أسمائه وحفظها لن يعينني على أن أوقن بها وأحياها، هذا علم بالله تعالى في حاجة لدراسة قرآنه، وإلى قراءات واستماع دروس، ومتابعة النفس ومحاسبتها، واستزادة دائمة، لأن استقرار أسماء الله الحسنی في القلب، واليقين بصفاته والعمل بها، يأخذ وقتاً ومجهوداً، فالشيء القيم لا يمكن أن تأخذه بئس رخيص، فعليه صلاح القلب، وبالتالي صلاح الإيمان كله، ولهذا قال رَسُولَ اللَّهِ عليه الصلاة والسلام: " إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا سَقَمَتْ سَقَمَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ".

وأحب أن أضيف ما ذكره الكاتب أحمد خيرى العمري بكتابه "البوصلة القرآنية":

"إن الخطاب القرآني لا يذكر سياقاً مخصصاً على سبيل التسلية وحاشاه، لذلك فإن هذه القصة موجه لنا بالتأكيد، وما أوجنا إلى ذلك الآن وفي كل وقت، فقصة البقرة تذكرنا أن كل الأوامر الإلهية حتى التي تبدو أنها شعائر عبادية محضة، لها مقاصد هامة إيمانية وأخلاقية واجتماعية، وأن الانشغال عن هذه المقاصد بتفاصيل الأوامر والعبادات يكاد يخرج العبادة عن مقصدها الهام الذي فرضت من أجله، وعند ذلك لن تغنى التفاصيل شيئاً.

إن علينا أن نتذكر أن السياق القرآني الذي أورد قصة البقرة، هو في السورة التي حملت الاسم نفسه، والتي لن يكون من المصادفة أن نعلم أنها السورة التي شرعت لأغلب احكام الاسلام، وأغلب حدوده وقوانينه، والمغزى في ذلك واضح، عند كل أمر وعند كل فريضة، يجب أن نرى أمامنا بقرة بنى إسرائيل، ويجب ألا نكرر أخطاءهم، فنوجه أنظارنا صوب المقصد ولا تستغرقتنا التفاصيل.

لقد واجه سيدنا عيسى عليه السلام في رسالته تخلى الديانة اليهودية عبر رجال دينها عن كل المفاهيم الحقيقية للشريعة، ورأى تمسكها بحرفية وشكليات دون معانيها مما أفقدها روحها، وحول الديانة اليهودية بأكملها إلى هيكل فارغ من المحتوى والمضمون، وحلت المادية والقساوة محل الدين والإيمان."

إذاً ربنا قص علينا قصة بقرة بنى إسرائيل للأهمية القصوى لمغزاها عند ممارستنا لعباداتنا وشعائرنا، وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا " يعنى هلك كل مسلم يتشدد فيما لا يجب التشدد فيه من العبادات والشعائر، ويبحث في التفاصيل ويستغرق فيها وفي تحقيقها، حتى ينسى الهدف الأصلي لها، ونجد المنتنعين الذين يدعون أنهم متشددون في دينهم، يتشددون في المظاهر، لا نجد منهم من يتشدد في الصدقات فيخرج ماله كله مثلاً كما فعل سيدنا أبو بكر!!

لماذا أطلق عليهم رسول الله هلك؟ لأنه بهذا التشدد فيما لا يجب التشدد فيه، يترك ما يجب الاهتمام حقاً به، كالصدق والتصدق، وأكل الحلال والإنفاق في سبيل الله، والعدل والإحسان والتقوى، وتجنب المحرمات ما ظهر منها وما بطن. يهلك نفسه بتشدد وتفصيل لم يأمر بها الله تعالى فيؤدى هذا إلى ترك ما هو أهم من الخشوع والتقوى والإخلاص، وأيضاً يهلك نفسه بالكبر الذى يصيبه لما يصدق نفسه أنه خير من الآخرين لأنه يتمسك ويتشدد في المظاهر والفروع.

عن سهل بن أبي أمامة حدثه، أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ وَأَبُوهُ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بِالْمَدِينَةِ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ، فَإِذَا هُوَ يُصَلِّي صَلَاةً خَفِيفَةً دَقِيقَةً كَأَنَّهَا صَلَاةٌ مُسَافِرٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا فَلَمَّا سَلَّمَ، قَالَ أَبِي: يَرِحُكَ اللَّهُ، أَرَأَيْتَ هَذِهِ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ أَوْ شَيْءٌ تَنَقَّلْتَهُ؟، قَالَ: إِنَّهَا الْمَكْتُوبَةُ وَإِنَّهَا لَصَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ مَا أَحْطَأْتُ إِلَّا شَيْئًا سَهَوْتُ عَنْهُ، فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَقُولُ: " لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيَشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَبَقَا يَأْتُهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالْدِيَارِ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ. " سنن أبي داود، إسناده حسن رجاله ثقات عدا سعيد بن عبد الرحمن الكنانى وهو صدوق حسن الحديث.

فهذا رسولنا الكريم يحدرننا من أن يشدد المسلم على نفسه بتفاصيل أجملها الله تعالى ولم يفصلها رحمة بالناس، فإن من يفعل ذلك فإن الله يشدد عليه فيعرض نفسه لضغوط وامتحانات قد يسقط فيها فيستحق العقاب كما حدث لأقوام من قبل، ذلك أنه غالباً من يُشدد إنما يُشدد تنطعاً ورغبةً في إظهار تدين كاذب.

إننا إذا أردنا أن نقارن بين من يؤدون العبادات والأحكام التي أمر الله تعالى بها بإحسان وتقوى، بمن يؤدون عباداتهم وما أمر الله تعالى من أحكام بأسلوب "فدجوها وما كادوا يفعلون"، سنجدها في الآيات، يقول تعالى عن الصنف الأول: "يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾" آل عمران.

في هاتين الآيتين يبين لنا ربنا صفات الصالحين، إنها ثلاث صفات، يؤمنون بالله واليوم الآخر، صدقاً وعملاً وليس لساناً فقط، لهذا يأمرهم أنفسهم والآخرين بالمعروف وينهون على المنكر، فلما استمروا في هذا، وذاقوا حلاوة العمل الصالح، أصبحوا يسارعون في كل أعمال الخير، فالمسارعة في الخيرات هي نتيجة لسابق الإيمان بالله واليوم الآخر.

بينما يقول عن صفات الصنف الثاني: وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ التوبة.

هذه آية في غاية الخطورة، إنهم يصلون وينفقون، إلا أن رب العالمين وصفهم بالكفر بالله ورسوله، لم يقبل صلاتهم ولا إنفاقهم، إنهم آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، يأتون العبادات كأنهم لا يؤمنون بالله ورسوله، فهم يؤدونها وهم يستشعرون أنها شيئاً ثقيلاً على النفس وكريهاً، ويتمنون لو أنهم لم يؤدوها، إنهم عند كل إنفاق ينفقون وهم كارهون للإنفاق، وعند كل صلاة يصلون وهم كسالى، فإطلاق الصفة (كسالى) و(كارهون) تعنى استمراريتها، فهي صفات استقرت بنفوسهم وقلوبهم، فاستحقوا صفة الكفر بالله ورسوله رغم أنهم يدعون الإسلام، ويصلون وينفقون أمام الناس.

كل هذا التبيان من رب العالمين لكي نحكم على أنفسنا وليس على الآخرين، لكي نخشى أن نكون بهذه الصفات السيئة، فنعمل على تغييرها ونرتقي حتى نكون من المؤمنين حقاً بالله واليوم الآخر.

كل ما سبق يبين لنا الأهمية القصوى لقصة البقرة في حياتنا، لقد بينت لنا أن المسلم أمامه طريقان، الأول الذي يؤدي عباداته ومعاملاته من خلال (يسارعون في الخيرات) بحب وتقوى وتعظيم، والثاني الذي يؤدي عباداته ومعاملاته من خلال (فدجوها وما كادوا يفعلون..) فهم كسالى كارهون.

إن كل ما أمر به رب العالمين من العدل وأداء الأمانات والقيام بحقوق الناس، وكل ما أمر به من عبادات وطاعات وأوامر ونواهي، للذين يؤدون استقبال ناجح واستقبال فاشل. الاستقبال الناجح سيكون تحت عنوان (يسارعون في الخيرات).

والاستقبال الفاشل سيكون تحت عنوان (فَدَبَّجُوها وَمَا كادُوا يَفْعَلُونَ..).

إن قصة بقرة بني إسرائيل ليست مجرد حدث تاريخي، بل درس مستمر لكل مسلم:  
النية أهم من العمل المادي.

العقل وفهم الدين أساس الطاعة الصالحة.

القلب السليم والإخلاص يقودان إلى القرب من الله.

المبالغة في التفاصيل الفارغة تُبعد عن الهدف الحقيقي للعبادة.

# قصة الخلق

يقول تعالى: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾** وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ البقرة.

تفسير الآيات

آية ٣٠: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**

لماذا أخبر الله تعالى جل في علاه الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة؟، هل هو في حاجة إليهم لهذا الجعل؟ بالطبع لا. هل يشاروهم أأجعل أم لا؟ بالطبع لا. لكن هذه صفة الله تعالى أنه يبين، فهو العليم الحكيم، ما كان ليوكل لأحد مهمة إلا وقد بين له التبيان الكامل الذي يعينه على أداء هذه المهمة، والملائكة الكرام ستكون لهم مهام مع هذا المخلوق، فبين لهم رب العالمين مراحل هذا المخلوق منذ بداية خلقه حتى جعله خليفة في الأرض.

"إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" في هذه الآيات لم يبدأ رب العالمين بأنه خلق آدم، لكنه بدأ مباشرة بتحديد الهدف من خلقه، بأنه جاعله في الأرض خليفة، والفرق بين الخلق والجعل، أن الخلق هو الإيجاد على تقديرٍ من غير مثال سابق. أما الجعل فهو إيجاد الشيء من الشيء، فالجعل هنا أتى بعد الخلق. جعله في الأرض خليفة، هذه هي مهمة سيدنا وآدم وبنيه، فما معنى وما المقصود من أنه سبحانه جعله خليفة؟

الخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه، وهذه الخلافة لا تعني أن وجود الإنسان كخليفة ينفي وجود الله تعالى، فتعيين محافظ على محافظة لا يعني نفي وجود الرئيس، لكنه يخلفه في إقامة الأحكام المتفق عليها، فالله تعالى قال الخلافة " في الأرض " فهي خلافة محددة بفترة حياة الإنسان على الأرض فقط، فبما يريد الله تعالى أن يخلفه آدم وبنيه؟، يقول تعالى: " يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ " ص.

سيدنا داود يمثل هنا رسالة الله تعالى لكل بني آدم، ويوضح لنا رنا كيفية النجاح فيما استخلفه عليه، إن معيار النجاح في هذه المهمة، أن يقيم الحق والعدل، فالخليفة مُستخلف وليس برئيس، مهمة الخليفة أن يحكم بما أمر به من استخلفه، الخليفة مُمتحن ومُحاسب وليس متروك لهواه، الخليفة يُناب ويُعاقب، ولهذا سخر الله تعالى له ما في السماوات وما في الأرض ليعينه على القيام

بمهمته في إصلاح الأرض وتعميرها، يقول تعالى: "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَجَرَّيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾" الجاثية.

أما تفسير الآية "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" بأن الله تعالى سيجعل البشر يخلفون بعضهم بعضاً فقط، وأن الإنسان ليس بخليفة لله، فإن ذلك من خلال الآية: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾) الأنعام. لكنها قد تكون كما يخلف المحافظون بعضهم بعضاً في تحمل المسؤولية وإقامة الحق والعدل.

بماذا يأمر أيضاً من استخلف الخليفة؟

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾) النساء.

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾) الأعراف.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾) النحل.

وهكذا... كل أمر بالقرآن الكريم وكل نهى، تحقيقه هو معيار نجاح الخليفة فيما استخلف عليه.

ثم تأتي لبقيّة الآية الكريمة ورد الملائكة على ما أخبر به رب العالمين.

**آية ٣٠: قَالُوا اجْعَلْ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**

هذا التعليق من الملائكة يمكن أن نفسره بعدة تفاسير تتبع المنطق، فمن يقول هذا الحكم، إما رآه بالفعل من كائنات شبيهة ببني آدم، أو أطلع على المستقبل فرأى أن معظم حياة هؤلاء البشر فيها إفساد وحروب وسفك للدماء، أو لديه فراسة تمكنه من معرفة ما سيؤول إليه أمر هذا الإنسان، أيان كان تفسير هذه المقولة، فقد علموا أن هذا الإنسان لديه القدرة على معصية الله تعالى وارتكاب ما حرمه، لديه القدرة على الاختيار، سمح له رب العالمين باتخاذ اختيارات مخالفة لما أمر به، فدهشوا لهذا الكائن الذي يمكنه معصية رب العالمين بهذه الصورة، فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، لذلك قالوا " وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ " فهذا ما يعرفونه فقط، لذلك تعجبوا من هذا الإنسان الذي سيستخلفه الله تعالى في الأرض فيفسد فيها ويسفك الدماء.

ثم قال رب العالمين: آية ٣٠: "قَالَ إِنِّي أَغَمُّ مَا لَا تَعْلَمُونَ" هذه الجملة بداية للتعرف على هذا العلم الذي لا تعرفه الملائكة، والذي هو السبب في خلق هذا الكائن البشري.

**آية ٣١: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**

إنه العلم ثم العلم ثم العلم.. هذا الذي تميز به آدم عن الملائكة، وهو الذي سيعينه على الخلافة في الأرض، هو الذي سيعينه على النجاح في رسالته، وعلى إقامة الحق والعدل، وعلى التعمير والإصلاح.

ما هو هذا العلم " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا " والأسماء جمع اسم وهو في اللغة لفظ يدل على معنى يفهمه ذهن السامع، وَعَلَّمَ تعني أنه عَلَّمَ ما هذا الشيء ومدلوله وكيف يستخدم وفيما يستخدم، فلو أطلقت لك أي أسم مثلاً (طوطم) على شيء، فلم تعرف ما هو وفيما يستخدم، فأنا لم أعلمك الاسم، فلا يقال هنا عَلَّمَهُ، لذلك لما يقول رب العالمين عَلَّمَ فبهي تعني فهِمَهُ وعرفه وتكونت لدى آدم علماً كاملاً بكل الأشياء التي هو في حاجة إليها، بكل قوانينها، بكل صورها، بكل المعارف الخاصة بكل اسم.

يقول فخر الرازي في كتابه (مفاتيح الغيب):

(هذه الآية دالة على فضل العلم فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام إلا بأن أظهر علمه فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم، واعلم أنه يدل على فضيلة العلم الكتاب والسنة والمنقول. يقول تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ الزمر.) وأهم ما في هذا العلم أن عَلَّمَهُ أن يتعلم ويزداد من العلم دائماً، يقول تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾" آل عمران. فالقدرة على التعلم نعمة عظيمة من بها الله تعالى على البشر، فالعلم هو الذي يزكي النفس ويخرجها من الظلمات إلى النور.

ويقول تعالى: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" الرحمن. فالقدرة على التعلم والتبيان، هما أسس تفضيل البشر للخلافة على الأرض، وأسس نجاحه في هذه الخلافة، وهو الذي بُنِيَ عليه سيقم الحضارات ويعمر الأرض.

"ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" عرضهم على الملائكة في مقابل عَلَّمَ آدم، العرض في مقابل العلم يدل على اختلافهم، فالعلم كما بينا هو معرفة الأسم والصفة والفائدة والعمل والتطور... ، لكن العرض هو الإظهار بدون هذا العلم. آدم خلقه الله تعالى قابل للتعلم واكتساب الخبرات وإعمال العقل، فاستطاع أن يقبل العلم الذي علمه الله تعالى، أما الملائكة فلا يملكون هذه الملكات، لذلك كانت الأسماء بالنسبة لهم عرض فقط ولم يتمكنوا من تعلمها.

لذلك طلب منهم رب العالمين أن ينبؤه بأسماء هؤلاء، أي ينبؤه بأسماء هذه الأشياء والعلم بها وصفاتها وفائدتها واستخداماتها...، وذلك لكي يظهر لهم السبب الذي من أجله استخلف بني آدم، لكنهم لم يستطيعوا لأنهم لا يملكون هذه القدرة التي اختص بها رب العالمين آدم وبنيه.

آية ٣٢: قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

قالوا سبحانك، أي تزهد ربنا وتعاليت، فلا علم لنا إلا ما علمتنا، وما علمه الله تعالى لهم لا يؤهلهم للخلافة في الأرض، ولا للحكم على صلاح البشر وقدرتهم على استعمار الأرض وتعميرها، فأنت ياربي وحدك من يملك العلم الكامل والحكمة المطلقة.

يقول ابن عاشور في (التحرير والتنوير)

(إن كلامهم هذا يدل على أن علومهم محدودة غير قابلة للزيادة فهي مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم ، فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها.)

آية ٣٣: قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

ما زلنا في اظهار مكانة آدم من القدرة على التعلم، فحتى أسماء الملائكة وما تعنيه أسأؤهم من معارف متعددة، كوظيفة كل ملك وقدراته ومكانته...، تعلمها وذكرها صحيحة كاملة، ومن السياق نستنتج أن هذا أمر كبير لم تكن الملائكة تتصور حدوثه، لذلك أعقب رب العالمين هذا الموقف بأنه يعلم غيب السماوات والأرض، يعلم ما هو مخفى عن الملائكة من قدرات هذا المخلوق، ويعلم ما يظهورونه وما يكتُمونه في شأن هذا المخلوق.

كل هذا التكريم لأبو البشر من أجل قدرته على التعلم، هذا هو الفيصل بين البشر وباقي المخلوقات، فإن رفض هذه الميزة وتجاهلها وفقد قدرته على التعلم، فقد مكانة وهبط عن مستوى إنسانيته.

آية ٣٤: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

بعد ما تبينت قدرات آدم المتميزة في القدرة على التعلم والفهم، أمر رب العالمين الملائكة بالسجود له، أيان كان شكل هذا السجود، فهو سجد لتبليان أفضلية العلم، وفيه نرى الطاعة السريعة الكاملة من الملائكة.

يقول د. سيد طنطاوي في كتابه تفسير الوسيط: (وجاء العطف في قوله { فَسَجَدُوا } . . . { بالفاء المفيدة للتعقيب، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد، ولم يصددهم ما كان في نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق، مظهر فساد وسفك دماء، لأنهم منزهون عن المعاصي.)

وفي هذا معنى هام جداً لتبليان الايمان برب العالمين، أن العبرة عند سماع الأمر، ليس الأمر ذاته، لكن من أمر به، فإن أيقنا أنه أمر من رب العالمين، فالمسارعة في الطاعة هي رد الفعل الطبيعي للمؤمنين.

ثم نأتي لموقف إبليس، رغم أنه ليس من الملائكة إلا أنه علم أنه مأمور بالسجود، فرفض بإصرار وتبجح، وقد بينت عدة آيات هذا الرفض وسببه، يقول تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ (الحجر.

ويقول تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتَبِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾) (الإسراء.

قول إبليس "أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ " يدل على أن أمر السجود لآدم كان أمر تكريم وتفضيل، يقول تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾) (الإسراء.

لذلك فإن رفض إبليس للسجود لآدم سببه الغيرة الشديدة من هذا الذي كرمه عليه، والاستكبار لأنه يرى أنه مخلوق من مادة أفضل من المادة التي خلق منها آدم، فقد وضع درجات للخلق ووضع نفسه في درجة أعلى من درجة آدم، لذلك قال تعالى: (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ).

## نبذة عن إبليس

سوف استعين بما كتبته في مقدمة كتابي (أسماء الله الحسنى) عن أهمية معرفة أسماء الله الحسنى والذي تكلمت فيه عما فعله إبليس.

(يقول تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أََمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّبَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾) ص.

سنجد من خلال هذه الآيات الكريمة أن الشيطان يؤمن إيماناً يقينياً بوجود الله تعالى.

**موقنٌ بوجود الله تعالى**، تكلم معه سبحانه، يعني موقن بوجوده يقيناً كاملاً يعلو على يقين كل منا ونحن لم نتكلم معه سبحانه.

**موقنٌ بالله تعالى رباً معبوداً**، فعندما تكلم معه سبحانه "قال رب".

**موقنٌ بالله تعالى مجيباً للدعاء**، وموقنٌ بيوم الحساب، وموقنٌ بأنه فعال لما يريد، فقد دعاه أن يرزقه الحياة الممتدة إلى يوم القيامة "فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ"، واستجاب له رب العالمين.

**موقنٌ باسم الله تعالى (العزیز)**، فقد أقسم بعزته " قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّبَهُمْ أَجْمَعِينَ " أي أنه موقن بأنه العزيز الذي لا يُغلب والذي لا يعجزه شيء، والمنيع الذي لا يُنال ولا يُغالب.

**موقنٌ بأن العبادة الحقّة لله تعالى لا تكون إلا بالإخلاص**، إخلاص العمل له سبحانه بلا إشراك لأهواء النفس ومصالحها ورغباتها، " قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّبَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ".

كل هذا اليقين، لم يمنعه من معصية الله تعالى والإصرار عليها، إلى أن وصفه الله تعالى بالكفر وجعل مصيره النار خالداً فيها. فكيف حدث هذا!!!! ولماذا؟؟

إنه عدم اليقين بكل أسماء الله تعالى وصفاته، إنه هنا آمن بصفات الله تعالى الرب، المعبود، الموجود، المحيب الدعاء، العزيز... لكنه لم يوقن بأسمائه تعالى (العليم الحكيم)، فالعليم هو المحيط علماً بكل شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، فاتحته وعاقبته، وهو العالم والكاشف بكل شيء، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه قاصية ولا دانية. والحكيم هو الذي له كمال العلم وإحسان الفعل وإتقانه، وهو الذي يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم، وعلمه أزلي دائماً لا يتصور زواله ولا يتطرق إليه

خفاء ولا شبهة، فهو الحكيم الحق، وهو الذي يكون مصيباً في التقدير، ومحسناً في التدبير، وليس له أغراض ولا على فعله اعتراض.

### ما الذي يجب أن يترتب على الإيمان والتصديق بهذه الصفات لله تعالى؟

يترتب عليها الطاعة القائمة على اليقين بعلمه وحكمته، فهو يعلم العلم الكامل الذي لا نحوزه، فيقدر التقدير الحكيم، الكامل في صحته، وسلامته ووقته وقدره.

### ثم ما الذي يترتب على الشك في هذه الصفات؟

يترتب عليها الرفض لأوامره ونواهيه، فالشاك في أنه سبحانه العليم الحكيم، يرى أنه سبحانه لا يعلم الكافي لأن يقرر هذا الحكم أو ذلك، وأنه لا يملك الحكمة الكافية لأن يضع الأمور حيث يجب أن توضع، فمن يملك العلم والحكمة، إنه هو صاحب الشك في صفات الله تعالى، فيترك أحكام الله تعالى ويتخذ القرارات والأحكام بهواه فيها.

نعود لفعل إبليس، إنه اعتقد أن الله تعالى لم يُصب عندما طلب منه أن يسجد لمن اعتقد أنه أقل منه يقول تعالى: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾. اعتقد أنه أعلم من الله تعالى بمن هو الأفضل والأحسن، وأنه أقدر على ترتيب أوضاع الخلق، ومعرفة من يستحق ومن لا يستحق، وأنه هو الأعلى الذي يستحق وغيره لا يستحقون، لذلك رفض أمر الله تعالى. يقول تعالى: "قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ الحجر. "لم أكن" يعني منتهى الكبر، أنه لا يجب ولا يكون أبداً أن يقول الله تعالى له اسجد لهذا البشر، إنه بهذا يقول لله هذا أمر غير وارد في حقي أصلاً، نعوذ بالله من هذا الكبر وهذا التأي على رب العالمين.

لهذا قال له رب العالمين: قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ولعنة الله تعالى، وانتقل من خاتمة الإيمان إلى خاتمة الكفر. يقول تعالى: "إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾" ص. بالله وصفه الله تعالى بأنه من الكافرين رغم أنه مؤمن إيماناً يقينياً بوجود الله وبقدرته على إجابة الدعاء وبيوم الحساب وبعزته وقدرته. لكن نقله عدم يقينه ورفضه لأساء الله تعالى "العليم الحكيم" من خاتمة كبار العباد إلى خاتمة الكفرة الملعونين. بالله بالله... شئ مخيف جداً ويستدعي منا انتباه شديد لحقيقة إيماننا بكل أساء الله تعالى وصفاته، هذا الإيمان الذي يظهر في الأفعال وليس في الأقوال.

بينما نرى بوضوح أن ما أعان الملائكة على العودة للتسليم بأمر الله تعالى في خلق سيدنا آدم وجعله خليفة في الأرض رغم تساؤلهم، إيمانهم بأنه سبحانه العليم الحكيم، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ البقرة.

وفي مجتمعاتنا "الإسلامية" الكثير من الأمثلة التي نرى فيها الإيمان ببعض صفات الله والكفر بالبعض الآخر، إن هذا ما يفعله المسلم عندما يؤمن بوجود الله تعالى، ويدعوه ويقسم بعزته ويعبده، فيصلى ويصوم ويزكى ويحج ويعتمر.. إلخ، لكنه لا يؤمن به علماً حكماً، فنراه يحقد على هذا، ويكره هذا، لأنه يرى أنه الأحق بعطاء الله تعالى، وأنه ليس من الصواب إعطاء هذا أو ذاك.

وهناك مثل خطير جداً موجود في كثير من المجتمعات المسلمة للأسف الشديد، رجال العائلة الذين يرفضون إعطاء المرأة نصيبها من الميراث، يرون أن إعطاءها من مال أبوهم حُكْمٌ من الله غير صائب، وأنهم الأحق بهذا الميراث لأنهم أفضل من المرأة التي ستورث مال العائلة لزوجها وأولادها الذين هم ليسوا من العائلة الملكية، وبالتالي فإن أمر الله تعالى بإعطاء المرأة نصيبها من الميراث ليس بأمرٍ حكيم، لهذا لن ننفذه، هؤلاء لم يزيدوا عن كونهم شياطين ولو صلوا وصاموا وحجوا واعتمروا وتصدقوا وادعوا الإيمان والتقوى. لقد آمنوا بالله تعالى معبوداً، لكنهم لم يؤمنوا به علماً حكماً في كل أوامره، لذلك تهربوا منها ورفضوا تحقيقها، فهؤلاء هم شياطين الأنس، لذلك قال فيهم سبحانه بعد آيات نظام الموارث الذي أقره بسورة النساء: ﴿ تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٣) ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١٤) ﴿

التوجيه في هذه الآيات الكريمة موجه للمسلمين، فهم بالطبع المنوط بهم تنفيذ أحكام الميراث التي أنزلها رب العالمين في سورة النساء، لذلك احتار العلماء في تفسير آية الخلود في النار الموجه للمسلمين، وقالوا كيف سيخلد مسلمٌ في النار؟

الإجابة لأن من يرفض تنفيذ أحكام الله تعالى فيما أمر به من أحكام الميراث، إيمانه **إيمان شيطاني**، إيمان يخده في النار كما سيخلد إبليس، إنه آمن بالله رباً معبوداً، وكفر به علماً حكماً، إن معصيته لله ورسوله في تنفيذ آيات الموارث، تماماً مثل معصية الشيطان التي حولته من عابد إلى كافر مخلد في النار، لماذا؟ لأن معصية هذا المسلم هي الكفر والرفض لأسماء من أسماء الله الحسنى وصفات من صفاته العليا. رفض ما فرضه الله تعالى من فروض في الميراث، لأنه يرى أنها ليست عن علم وحكمة، إنه رفض نابع من الكبر والاعتقاد بأنه هو الأعلّم والأحكم، والأحق بإصدار الأحكام، كما فعل الشيطان فطرده الله تعالى من رحمته، يقول تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٣) ﴿ الأعراف.

ولقد أخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام عن مصير صاحب هذه الصفة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ "، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ " رواه مسلم. لقد حرّمه الله تعالى من الجنة برفضه للحقوق التي أنزلها الله تعالى، وبحرمانه الناس من حقوقهم، تكبراً على أمر الله تعالى فيما أمر به.

ومثال آخر للذين يؤمنون بالله تعالى رباً ومعبوداً ومجيباً للدعاء.. لكنهم لا يؤمنون بأسمائه وصفاته العليم الخبير السميع البصير القريب الحسيب فتراهم يطيعون الله على الملأ، ويعصونه في الخفاء، هؤلاء بين لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام صفاتهم ومآلهم،

عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: " لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى هَبَاءً مَنثورًا " قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: " أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا " سنن ابن ماجه.

نلاحظ من الحديث الشريف أنهم من المسلمين العابدين الذين ظاهراً يعملون أعمالاً صالحة كثيرة لها ثواب عظيم، كالصلاة أول صف أول الوقت، والتصدق وأعمال الخير، وصيام الفرض والتطوع، والحج والعمرة بعد العمرة.. وهكذا، فهم موقنون بالله تعالى موجوداً ورباً ومعبوداً.

كيف يفعلون هذه الأعمال الصالحة، ثم يرتكبون المعاصي كأنهم لا يؤمنون بالله ولا بيوم الحساب ؟

إنهم يرتكبون معاصي حيث لا يراهم أحد أو لن يستطيع أن يحاسبهم أحد، نراهم يظلمون الأضعف منهم حيث لن يستطيع أن يحاسبهم أحد، أو يكذبون حيث يأمنون معرفة الناس وأنهم لن يكتشفوا، أو يتلقون الرشوة حين لا يمكن ضبطهم، أو يأكلون أموال الناس بالباطل وخاصة الضعفاء منهم حينما يتمكنون من ذلك، أو يقيمون علاقات محرمة حيث لا يراهم أحد... إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا..

هؤلاء شياطين الأنس لأن إيمانهم إيمان شيطاني، إيمان ببعض أسماء الله تعالى وصفاته، ورفض عملي وليس قولي ببعض صفاته الأخرى، إن الكفر ببعض صفات الله تعالى عند هؤلاء ليس بالكلام الصريح، هؤلاء يقولون كلاماً رائعاً في الإيمان والتقوى ومخافة الله، لكن كفرهم كفر عملي، إن عمله هذا يعني أنه يكفر بأسماء الله تعالى العليم الخبير البصير السميع الحسيب.. كفر عملي تمثل في أفعالهم وليس في أقوالهم، ثم ظلوا عليها وماتوا عليها.

هذا المثال مختلف عن المؤمن صاحب العقيدة الصحيحة في الإيمان واليقين بكل أسماء الله تعالى وصفاته، لكنه ينسى ويخطأ ويعصي ككل بني آدم، لكن لأنه مؤمن بأن الله سميع بصير حسيب، وأنه غفور رحيم، يسارع بالتوبة والندم والرجوع لله تعالى. بينما من عقيدته فاسدة، بمعنى الإيمان ببعض أسماء الله والكفر ببعضها، عند المعصية لا يتوب ولا يستغفر، فيلاقي الله تعالى بهذا الإيمان الشيطاني، فيجعل عمله هباءً منثوراً، لقد كان له عمل، لكنه نابع من إيمان شيطاني، فمصيروه مع الشيطان والعياذ بالله.. وقد أخبرنا الله تعالى بأسوأ صورة لاستقبال أقداره من خلال فعل ابليس ورفضه طاعة ما أمر به كبراً، وأخبرنا بأفضل صورة لاستقبال أقداره من خلال إيمان الملائكة باسمه العليم الحكيم.

آية ٣٥: قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

بعدما خلق الله تعالى آدم وخلق زوجته من مثل ما خلقه، أمره أن يسكن الجنة، وهي جنة على الأرض، لأنه سبحانه بدأ الآيات أنه جاعل في الأرض خليفة، والجنة تعني الحديقة الغناء، رائعة الجمال، كثيفة الخضرة، الغنية بالفواكه الشهية، وفي القرآن الكريم أطلق رب العالمين على الحديقة الغناء اسم الجنة، مثلما في سورة القلم (أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) وفي الكهف (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ)، وسمح لها

رب العالمين بالأكل منها حيثما شاءوا، يمكن أن نعد مثلاً في هذه الحديقة ألف صنف سمح الله تعالى بأكله، لكنه استثني شجرة واحدة منعها من الاقتراب منها.

يقول د. راتب النابلسي في هذه الآية الكريمة: (لا يوجد تكليف من دون نهي، لم يعد تكليفاً، أي قرار لا يوجد فيه منع لم يعد هذا قراراً، قانون السير: ممنوع أن تقف في المكان الفلاني، ممنوع أن تقود مركبة من دون شهادة، لولا المنع لما كان تكليف، ولما كان هناك أمر، ولم يعد للأمر أي معنى، فمن لوازم التكليف الأمر والنهي، من لوازم العبودية لله، من لوازم التكليف، من لوازم حمل الأمانة، أن يكون هناك أمر، وهناك نهي، ولكن رحمة الله تقتضي أن الأشياء المباحة لا تعد ولا تُحصى، وأن يكون الشيء المحرم قليلاً جداً).

هذا تبيان لمنهج الله تعالى للبشر على الأرض، عيش حياة كريمة بما أحله الله ولا تقترب مما حرمه، ومن يقترب خطوة خطوة نحو الحرام فيقع فيه، فقد ظلم نفسه لأنه جلب لها التعاسة في الدنيا والآخرة.

آية ٣٦: **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** **أَزَلَّهُ مِنَ الدَّرَجِ: أَزَلَّهُ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي: سَمَلَهُ عَلَى ارتكابها. فأزلهما الشيطان أي دفعهم رويداً رويداً بدون أن يشعروا نحو ارتكاب ما حرمه الله تعالى، فلما أتيا ما حرمه الله تعالى أخرجهما مما كانا فيه، أخرجهما من المستوى المتعم الذي كانا ينعمان فيه.**

إن الذي يحول بين المسلم والجنة، الشيطان، هو الذي يوسوس له في نقاط الضعف لديه، فإن تذكر وتمسك بهدي الله نجا، وإن قبل الوسوسة ونسى هدى الله هلك.

وتبيين لنا آيات أخرى أدواته في دفعها نحو هذا الانزلاق للمعصية، يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (١٢٠) طه. من الواضح أن الشيطان يعلم مواطن الضعف البشري، ومن مواطن الضعف البشري، الرغبة في البقاء في الدنيا بلا نهاية، وحب التملك لكل شيء وأي شيء، وأن تستمر معه هذه الممتلكات فلا تذهب أبداً.

وغالبا ما يجتمعان معاً، فيظن الإنسان أنه سيحقق الخلود من خلال اتساع ممتلكاته وأمواله والسيطرة والتحكم، يقول تعالى: ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) **الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٣) الهمة. يحسب خاطئاً أن ماله قادر على كل شيء، حتى على منحه الخلود، فالرغبة في الخلود والبقاء تصاحبها الرغبة في التملك. ولا يعلم هؤلاء أن هذه خدعة الشيطان للناس والتي يمكنه من خلالها جرهم إلى الظلم وأكل الحرام وارتكاب الموبقات.**

بين لنا رب العالمين من خلال قصة سيدنا آدم ما يجب أن ننتبه إليه من أدوات الشيطان، إنه يستطيع من خلال إغوائه ووسوسته أن يجعلها أداة لتعاسة الإنسان وجره نحو المعاصي، إن هاتان الرغبتان خلقها الله تعالى في طبيعة البشر لكي تعمروا الأرض، فالرغبة في الخلود تؤدي إلى حفاظ الإنسان على حياته وحياة أولاده، والرغبة في التملك هي التي تؤدي إلى البناء

والمصانع والتجارة وبناء الحضارات وتعمير الأرض، هذا إن سار بها المسلم على مراد الله تعالى، أما ما يكون على غير هدى من الله وما يكون تبعاً لأهواء النفس، فإنه يصبح وبالاً على الإنسان وتعاساً في الدنيا والآخرة.

**آية ٣٧ فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**

هكذا أفضل استقبال للابتلاء بالمعصية، إنه الاعتراف والتوبة والندم، يقول تعالى على لسان آدم وزوجه: (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾) الأعراف.

وعن أنس، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ" جامع الترمذي.

والتوبة الحق تعني صفات إيمانية كثيرة، تعني الإيمان بالله تعالى، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، والتواضع والأدب ومعرفة الحق، والحزن على المعصية والرغبة في رضا الله تعالى، والندم والإصرار على عدم العودة، والرغبة في اصلاح أخطاء المعصية، هذه هي التوبة التي يقبلها الله تعالى ويبدل سيئاتها حسنات، فهناك ذنوب بين العبد وربّه تغفرها التوبة النصوح، وذنوب بين العبد والناس يغفرها الناس لما يتم اصلاح ما فسد من معصية العاصي وظلمه.

أما عدم الاعتراف بالخطأ، والتكبر على الله تعالى وعلى الناس، فإنه يعني عدم معرفة الله وعدم الإيمان، كما فعل الشيطان فطرده الله تعالى من رحمته وأبعده ولعنه.

آية ٣٨ (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ). آية ٣٩: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

ملخص الدين ومراد الله تعالى من عباده في هذه الآيات الكريمة، هبطتم إلى الأرض التي خلقتم لها، وجعلتكم خلائف، وسخرت لكم كل ما تحتاجون إليه، فعليكم اتباع هداي الذي أرسله لكم، ومن يتبع الهدى فلهم الأمن، لن يتمكن الخوف منهم، ولن يهلكهم الحزن.

يقول تعالى: ﴿... فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام.

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

الدورس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها:

(١) أهم ما تتعلمه من قصة الخلق، أن الإنسان فضل بالعلم، العلم بالله تعالى ورسوله وكتابه، وكل أنواع العلم التي تعين على إصلاح الأرض وتعميرها، إن من حسن استقبال قدر الله تعالى بكوننا بني آدم، أن نتعلم من المهد إلى اللحد، هذه نعمة الله تعالى على بني آدم، وهي نعمة عظيمة سنحاسب على تعاملنا معها، فإن استخدمناها كما أمرنا رب العالمين بالتفكير والتدبر والتعقل، فقد أحسننا استقبال قدر الله تعالى بخلقنا.

وإن أوقفنا هذه العقول عن العمل، ورضينا بالجهل وسلمناها لآخرين، ونقول يكفيننا أنهم فكروا ونحن نأخذ عنهم فقط، فقد أسأنا استقبال قدر الله تعالى بخلقنا وكفرنا بنعمته.

٢) إخبار رب العالمين للملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة، هذا يعني أن حسن استقبال قدر الله تعالى لمن بيده السيطرة والتمكن، أن يخبر من دونه بما يجب إخبارهم من الأمور، وبين ويوضح، ولا يسيء استقبال قدر الله تعالى له بالتمكن والسيطرة، فيتكم على من حوله ويضن عليهم بما يجيب على أسألتهم.

٣) نتوقف هنا طويلاً عند سماح رب العالمين جل في علاه لهذا التساؤل وهذه المناقشة من خلقهم من الملائكة، رغم أنه خلقهم على الطاعة الكاملة، لكن هذا لم يمنعهم من إبداء رأيهم في أمر جليل كخلق البشر. إن الحديث الذي دار بين الله جل وعلا والملائكة عندما تعجبوا من أن يجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، حديث ذو دلالة عظيمة، إن من حسن استقبال أقدار الله تعالى للمسلم بعلو القدر والفهم والعلم، أن يستمع لمن يحادثه ولا يتكبر عليه، ويجيب على أسئلته بهدوء وصبر. وإن من سوء استقبال قدر الله تعالى للمسلم بعلو القدر، أن يُظهر التأفف والغضب عندما يُسأل، ويعتقد في نفسه أن مكانته أكبر من أن يجيب على هؤلاء.

٤) ثم تأتي لأسوأ استقبال في قصة الخلق، وهو موقف إبليس، لقد أبى واستكبر، أبى أن يطيع أمر الله تعالى بتبجح ومعانده، واستكبر على آدم وقرر أنه أفضل منه ولن يعترف بأفضليته.

وهذا للأسف موقف الكثيرين عند استقبال قدر الله تعالى لما يأمر بأمر يرون فيه أنهم أكبر من أن يطيعوه. أسوأ إيمان هو الإيمان الشيطاني الذي يجعل المسلم يستقبل قدر الله الذي لا يعجبه بأسلوب إبليس.

٥) في المقابل تعلمنا من سيدنا آدم وزوجه أفضل استقبال لقدرة الله تعالى بالمعصية، فهناك أقدار الله تعالى تكون بأيدينا مثل المعاصي، لقد اعترفا ونداما وتابا بمجرد وقوع الذنب، لم يتذعرا بوسوسة الشيطان ووعوده، ولم يجادلا، ولم يتهربا من مسؤوليتهما عن ارتكاب المعصية، بل سارعوا بالاعتراف والتوبة والاستغفار.

٦) كما نتعلم أن أي خليفة في الأرض لا بد أن يُجاسب، فلا توجد سلطة في الأرض منحها الله تعالى لبشر إلا ولا بد أن يُسأل عما فعل بها.

انہنی آکہ

يقول تعالى: **وَإِنَّمَا عَلَّمْنَاهُمْ بِنَاءَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعْمَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ المائدة.**

يخبرنا رب العالمين ويُعلمنا من خلال ما يقصه علينا من القصص الحق، تلك التي حدثت بالفعل وبها عبرة ودروس لمن يستمع ويتفكر ويجب أن يترقى.

وقد سُرحت قصة ابني آدم بمعظم التفاسير من خلال قصة النزاع على أختين لهما، أخذت من كتب أهل الكتاب ولم يأت بها حديث صحيح، لذلك سنكتفي بشرح ما أورده رب العالمين لنا بالقرآن الكريم من آيات.

تفسير الآيات:

يسرد علينا ربنا قصة ابني آدم، قدم كل منهما قرباناً لله تعالى، فتم قبول قربان أحدهما ولم يتم قبول الآخر، فماذا فعل هذا الآخر؟ استنشاق غيضاً وغيظاً إلى درجة أنه هدد أخاه بالقتل، فإذا بالأخ الطيب الذي قُبل قربانه ينصحه نصيحة تعينه على قبول قربانه فيما بعد بقوله " **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** "، يعني كن من المتقين، يتقبل الله تعالى منك، لكن من الواضح أن هذه النصيحة لم تطفئ غضب أخاه الذي يريد قتله، ووجده مصراً على انفاذ تهديده، فحاول تهدئته بأن أخبره أنه لن يُقدم على الدفاع عن نفسه إذا حاول قتله، دلالة على مسالته إياه وحبه له، وذكره برب العالمين وأنه يخاف الحساب، ولكن أخاه لم يرتدع، فخره التحذير الأخير، بأنه بهذا سيجعل عنه آثامه يوم القيامة تعويضاً عن قتله إياه، هذا إلى جانب آثامه الشخصية، وبهذا فلن يكون أمامه إلا أن يكون من أصحاب النار.

فإذا بالأخ الغضبان يستجيب لهوى النفس في الرغبة في الشعور بالعلبة والانتصار على من شعر أمامه بالإهانة والنقص والفشل، فقتله، قتل أخاه، فأصبح من الخاسرين، خسر ديناه وآخرته.

ثم ظهرت مشكلة لم يكن يتوقعها، لا يعرف كيف يتعامل مع جثة أخيه، ماذا يفعل بها؟ فبعث الله غراباً يحفر أو ينبش في الأرض وغالباً يضع بها جثة غراباً ميتاً ثم يهيل عليه التراب، فلما رأى الأخ القاتل هذا، تنبه إلى أن يفعل مثل الغراب، فدفن أخاه، ثم أصبح من النادمين.

من أجل ذلك، من أجل أن هذه فعله شنيعة جداً، كتب الله تعالى على بني إسرائيل وكل الناس، أن من قتل نفساً ظلماً وعدواناً، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه نشر هذه الجريمة وكان نموذجاً حياً لتنفيذها، فأصبح من السهل أن تشيع بين الناس. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، لأنه نموذج وقودة لكل الناس تدفعهم لبث الحياة فيمن حولهم وإغاثة الملهوف وإنقاذ المحتاج.

## الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها:

أنها نموذج صريح لمقابلة الخير بالشر، ومقابلة الطيبة والوداعة والصدق، بالعدوان والظلم والحقد، هذه المقابلة بين أكثر اثنين قرباً من حيث صلة الدم من الأب والأم، لكنها أيضاً الأكثر ندباً، فإذا تفوق أحدهم على الآخر، أو أصبح أحدهما ناجحاً محبوباً، والآخر فاشلاً منبوذاً، فقد بدأت العداوة والبغضاء.

لنحلل الموقف:

**أولاً:** نرى أن كلا الأخوين قد نشأ في نفس ذات الظروف، وتلقيا نفس ذات التوجيهات، فما الذي أدى بالأول لكل هذا الإيمان وهذه الطيبة والصدق، وأدى بالثاني لكل هذا الغل والحقد، إنه الاختيار، بعد بذل الوالدين لكل ما يستطيعانه من مجهود لنشأة أولادهم على أحسن الأخلاق، يأتي اختيار كل فرد فيهم لأفعاله، وهو يتحملها تحملاً كاملاً وسوف يحاسب عليها وحده. فالله تعالى أعطى بني آدم العلم، وكرهم بالعقل، وميزهم بالاختيار، هذا هو قدر الله تعالى لكل بني آدم، وكل بني آدم لديه كامل الأهلية للاختيار وتحمل نتيجة أفعاله.

**ثانياً:** قدر الله على الأخ المؤمن مواجهة هذا الموقف شديد الصعوبة، أخاه يهدده بالقتل، فهل يشتبك معه، أم يتعامل معه بالحسنى عليه يعود، هنا هذا الأخ تعامل بالحسنى إلى آخر لحظة، ففقد حياته، قتله أخاه، ظلماً وعدواناً، فهل موقفه من أخيه هو أحسن استقبال لقدرة الله تعالى الذي ابتلاه بهذا الأخ الحاقداً؟ أعتقد أن هذه هي الصورة المثلى لاستقبال مثل هذه المواقف بين الإخوة، يندرج تحتها صور كثيرة جداً، فقد يستطيع الأخ الصادق الحصول على حقه من الأخ الظالم بدون قتال، من خلال القوانين، أو المجالس العرفية، أو غيرها، لكن إذا وصل الأمر للقتل، فلا يكون هو القاتل.

**ثالثاً:** كيف وصل هذا الأخ لهذه الدرجة البشعة من العدوانية والحقد؟ إنه اختيار وراء اختيار، اختار ألا يكون من المتقين، والتقوى هي محصلة الأعمال الصالحة والاستقامة ومخافة الله تعالى، فهو لم يكن في حياته اليومية من المتقين، فسبى الخلق ليس من المتقين، والمعتدي على حقوق الناس ليس من المتقين، ومن لا يوفي بعهده وينقض الميثاق ليس من المتقين، وأكل أموال الناس بالباطل والكذاب والمرتشى والنصاب ليس من المتقين، ومانع الزكاة ليس من المتقين، والظالم ليس من المتقين،...وهكذا، فيجب ألا نستعين بالمعاصي التي نعتقد أنها صغيرة لأنها تتراكم وتؤدي إلى الطباع الإجرامية، إن مرتكبوا هذه المواقف في أعمالهم وحياتهم اليومية، قد يصلوا مع إصرارهم عليها إلى العدوان والظلم والقتل، فالمعصية إن لم يتب منها الإنسان تصبح ككرة الثلج التي تبدأ صغيرة ثم مع تدرجها لأسفل تحمل معها كميات كبيرة من الثلج حتى تصبح هائلة الحجم ومميتة.

لذلك نتعلم من هذا الموقف لهذا الأخ، أنه أساء استقبال أقدار الله لما لم يكن من المتقين، لكنه لم يتوقف عند عدم التقوى، لكن عدم التقوى إنما أوصله لدرجة قتل أخاه، فلا يجب أن نستعين بامتحاناتنا اليومية، ويجب أن نحرص على النجاح فيها ونراقب أنفسنا ونحاسبها حتى لا تتراكم علينا الذنوب وتتلاعب بنا أهوائنا وتقلنا غضباً وحقدًا، ثم يتطور الأمر لحد ارتكاب الكبائر.

**رابعاً:** تعجبت كثيراً من عدم ذكر دور للشيطان في هذه الجريمة البشعة، الأمر كله جاء من النفس (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ

فَقَتَلَهُ) ما الذي نفهمه من هذا؟

أن الشيطان يوسوس لبني آدم، حتى إذا أفسدهم وأفسد فطرتهم وأفسد نفوسهم، قاموا بأحسن مما يستطيعه معهم. أن عمل الشيطان افساد الإنسان في الكثير من الصغائر التي لا ينتبه لها، حتى إذا تراكمت ووصم بأنه من غير المتقين، تركه لنفسه الفاسدة لأنها ستقوم بالأمر كما يريد.

إن دور النفس هنا كان أكبر من دور الشيطان، فلم يكن يستطيع الشيطان أن يحمله على قتل أخيه، إنما استطاعت نفسه ذلك.

إن أخطر ما يواجهه الإنسان فساد نفسه بكثرة الذنوب والمعاصي وعدم محاسبته لنفسه وردعها، يظل يكذب ويكذب، ويظل يسرق ولو شيئاً بسيطاً لكن بصورة مستمرة، ويظل يظلم ويظلم، ويظل يرأى ويرأى، ويظل يغير ويحقد... وهكذا.. حتى تتكون على فطرته السليمة التي خلقه الله عليها غشاوة كثيفة، فلا يرى الحق حقاً ولا يرى الباطل باطلاً، ويظل يتبع هواه حتى يرديه والعياذ بالله.

هذا ما تعلمناه من هذه القصة القصيرة الكبيرة، والتي هي مثال للحياة بين أنواع من البشر، يمثل فيه الأخ الطيب قمة الطيبة والصلاح، ويمثل فيه الأخ القاتل قمة العدوان والطغيان والظلم لأخيه، مع ملحوظة هامة وهي أن هذا الأخ الطيب لم يتسبب بأي صورة في عدم قبول الله تعالى لقربانه، ولم يتسبب بأي صورة في أي مشاجرة أدت لقتل أخيه له، فهو عدوان وظلم صارخ غير مبرر.

خامساً: معصية آدم وزوجه تابا عنها بمجرد ارتكابها، فهي نتجت عن النسيان والاستدراج، لكن ابن آدم القاتل أصر على جريمته رغم النقاش الذي دار بينه وبين أخيه، ذلك أن الشيطان لم يستطع أن يفسد ميزان الحلال والحرام عند آدم وزوجه، فعملوا بمجرد وقوع المعصية أنهم ارتكبوا محرماً، فسارعوا بالتوبة. أما عند ابن آدم، فقد أفلح الشيطان في افساد هذا الميزان، فلم يرى أنه أساء في واقعه اليومي ومعاملاته حتى لم يعد من المتقين، ثم بعد قتله لأخيه، لم يصدر عنه ما يُنبأ أنه شعر بجريمته واستغفر الله منها، كان كل تعليقه أنه فشل في أن يتعامل مع جثة أخيه، ثم أصبح من النادمين، هل ندم على أنه فشل على التعامل مع جثة أخيه، أم ندم على قتله، لم يبين لنا ربنا، لكن لم يخبرنا أن استغفر كما أخبرنا بذلك في قصة آدم وزوجه.

لذلك فإن أخطر ما يصل إليه إنسان، أن يفسد ميزانه، فلا يرى أن ما يفعله ظلم أو عدوان أو معصية، يراه أمر طبعي، وهذا يورده المهالك وتصبح هدايته.

# قصة الملا من بني إسرائيل الذين طلبوا القتال لاسترداد أرضهم

يقول تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ" إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِئْسَ وَآلِيهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَمَلَكَ لَنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾. "البقرة.

#### تفسير آيات القصة القصيرة:

يبدأ رب العالمين قصة بني إسرائيل مع نبيهم بقصة قصيرة، قد تكون حدثت بالفعل، وقد تكون مثال، "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ.. " يخبرنا ربنا عن قوم خرجوا من ديارهم وهم أُلُوفٌ، أعداد كبيرة، حذر الموت، تركوا ديارهم خوفاً على أنفسهم من الموت، ومن الواضح أن هذا الخوف لم يكن مُبرراً أو مقبولاً عند رب العالمين، لذلك أراهم ما كانوا يخافون منه، إذ أماتهم جملة واحدة، ثم أحياهم، ليتعلمهم أن الموت والحياة بيده وحده، ولا دخل لما كانوا يخافون منه في موتهم، فوضع العبرة أن الفرع والجزع والخروج والحذر، لم يغير مصيرهم، ولم يدفع عنهم الموت، ولم يرد قضاء الله. وكان الثبات والصبر والمواجهة أولى لو رجعوا إلى الله تعالى وأطاعوه واستعانوا به.

إن الآية الكريمة تدم أن يكون الخروج فقط خوفاً من الموت، لكن لا يوجد بالآية ما يمنع من الخروج من أجل إعادة بناء القوة وتوحيد الصفوف ووضع خطة للعودة والالتزام بها.

ومن يؤيد أنها مثلٌ وليس بقصة واقعية في « تفسير ابن كثير » عن ابن جريج عن عطاء أن هذا مثلٌ لا قصة واقعة. بينما يؤيد ابن عاشور في كتابه "التحرير والتنوير" أنها إشارة إلى حادثة وليست مثلاً لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ}، ويقول: والمقصود من هذا موعظة المسلمين بترك الجبن، وأن الخوف من الموت لا يدفع الموت، فهؤلاء الذين ضرب بهم هذا المثل خرجوا

من ديارهم خائفين من الموت، فلم يغن خوفهم عنهم شيئاً، وأراهم الله الموت ثم أحياهم، ليصير خُلق الشجاعة لهم حاصلًا بإدراك الحس. ومحل العبرة من القصة هو أنهم ذاقوا الموت الذي فروا منه، ليعلموا أن الفرار لا يغني عنهم شيئاً، وأنهم ذاقوا الحياة بعد الموت، ليعلموا أن الموت والحياة بيد الله وحده، كما قال تعالى: { قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ } الأحزاب

ثم للإمام محمد عبده رحمه الله رأي متميز عن بقية الآراء، ذكر بتفسير الآية بالتفسير الوسيط لسيد طنطاوي، إذا يرى أن المقصود من موت هؤلاء هو موت معنوي، فقد جبنوا وخنعوا فماتوا كشعب لما ماتت شجاعتهم وكرامتهم، وأحياهم لما عادوا واتحدوا وطردهم أعدائهم واستقلوا بأوطانهم.

يقول: " . . . والمتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قتلهم، فقد كانوا أوفياً أي كثيرين، وإنما الحذر من الموت هو الذي يولد الجبن في أنفس الجبناء، فيرهبهم أن الفرار من القتال هو الواقي من الموت وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء من رقاب أهله، لقد خرجوا فارين { فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا } أي أماتهم بتمكين العدو منهم، فعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعها، فكل من بقي من أفرادها بقي خاضعاً للغالبيين ضائعاً فيهم، لا وجود له في نفسه، وإنما وجوده تابع لوجود غيره ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم ، ذلك أن من رحمة الله في البلاء يصيب الناس، أنه يكون تأديباً لهم، ومطهراً لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة.

أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف والجبن والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم، فاعتزوا وكثروا حتى خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها " . بعد هذا العرض لتفاسير العلماء لهذه القصة القصيرة، نأتي لتعقيب رب العالمين عليها،

يقول تعالى: " **إِنَّ اللَّهَ لَنُؤْفَضِلُّ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** "

**ما هو فضل الله تعالى على الناس في هذه القصة؟**

**إن الله لنؤفضل على الناس**، إنه فضل العلم، علمنا ربنا كيف نحسن استقبال هذه الشدة، علمنا كيف نتصرف في مثل هذه المواقف، أعطانا دليل نسير عليه إذا ما واجهنا عدو متغطرس متجبر شديد البأس، يجعلنا الخوف منه على حياتنا، أن نفر من بيوتنا بأعدادنا الكبيرة ونترك له أرضنا وديارنا وبلادنا، علمنا ألا نفر خوفاً من الموت، علمنا أن الموت بيده وحده، فكم من إنسان أحاطت به كل أسباب الموت، فأجابه الله، وكم من إنسان أحاطت به كل أسباب الحياة، فأماته الله.

**إن الله لنؤفضل على الناس**، لأنه سبحانه يعلمهم كيف يحافظون على أرضهم وديارهم وبلادهم، إن عدم الخروج خوفاً، يقابله التمسك بالبقاء والجهد والكفاح والصمود، والاستعانة به سبحانه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وإنه لمع المتقين، فمن يطيع الله فيما يجب من البقاء والدفاع عن داره، فهو من المؤمنين المتقين الذين ينصرهم.

إن الله ذو فضل على الناس، لأنه يعطيهم دائماً فرصة لإصلاح الخطأ، فلقد أماتهم ثم أحياهم لكي يتعلموا الدرس، فيحسنوا استقبال أقدار الله تعالى، فهو تعالى لا يأخذ بمجرد المعصية، إنما يعفو ويصفح مرات عديدة، ويرسل للإنسان عشرات، بل مئات الرسائل كي يعود عما لا يحبه ويرضاه، وهذا من فضله جل وعلا.

وهذا العلم يستحق منا شكر الله تعالى بالعمل بما هدانا إليه، لكن أكثر الناس لا يتعلمون كيف يواجهون أعدائهم، فلا يشكرونه بالعمل بما يجب ويرضى. وهذا الإهمال من رب العالمين وهذه الفرص تستحق الشكر، بأن نحسن استغلالها، فنتوب ونحسن العمل.

إن الله ذو فضل على الناس، يذكر د. النابلسي في تفسيره لهذه الآية لفضل الله تعالى، يقول: "من أعظم فضل الله علينا أن حياتنا بيد الله، وأن رزقنا بيد الله، وأن يد البشر مقطوعة عن أن تتحكم بأرزاق العباد، وعن أن تتحكم بأجالهم، ولو بدا ذلك للسُدج من الناس، أو لضعاف العقول، أو لضعاف الإيمان، أن زيدا أو عبداً بيده الرزق الوفير أو القليل، وبيده الحياة أو الموت. أي أنه ما أمرك أن تعبد إلا وقد طمأنك أن أمرك كله إليه: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعَبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ هود ١٢٣. من أجل النعم أن أمر الحياة والموت بيد الله عز وجل (بحيي ويميت)، وأن أمر الرزق بيد الله عز وجل، وقد قيل: "كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً"، لكن ضعف الإيمان، وضعف الإدراك، والبعد عن جوهر هذا الدين، يلقيان في القلب الخوف والهلع."

ثم يقول تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة" وَاللَّهُ يَفِضُّ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾"

يعطينا ربنا صورة واضحة لحسن استقبال قدر وبلاء هجوم عدو متجبر يريد اخراجنا من ديارنا، وهو عدو قوي سفاح يقتل من يعترض طريقه، إنها خطة متكاملة لهزيمة هذا العدو:

**أولاً:** ألا نخرج خوفاً وهدراً من الموت، لأن الموت بيد الله وحده، فترك الديار والأوطان خوفاً من الموت، لا قيمة له وليس هو سبيل النجاة، بل تنشب بديارنا ونصمد بها

**ثانياً:** القتال دفاعاً عن أرضنا وحفاظاً على أوطاننا، وهذا هو القتال في سبيل الله.

**ثالثاً:** الإنفاق في سبيل ذلك من أموالنا، وحببنا ربنا في الإنفاق حتى أنه جعله كقرض له سبحانه سيضاعفه أضعافاً كثيرة، وهو يقبض ويبسط، ففي بعض الأوقات سنجد الأمور سهلة وميسرة، وفي البعض الآخر قد نجدها صعبة وثقيلة، فيجب أن نعرف أن له حكمة في هذا وذاك، وإليه الرجوع والمآل، ليثيب ويكافأ من أحسن استقبال أقداره، فجاهد بنفسه وماله للدفاع عن بلده من العدوان.

## تفسير آيات القصة التفصيلية لمعركة طالوت

نبدأ في قصة المعركة التي خاضها بني إسرائيل من أجل تحرير بلادهم من المغتصبين:

يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّهُ لَمَلَائِكَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾}

بدأ ربنا القصة التفصيلية التي سيذكرها لنا، بملخص لها، وهي أن ملأ من بني إسرائيل و {الملأ} الأشراف من الناس، كانوا قد انهزموا أمام أعدائهم هزيمة منكرة جعلتهم يولون الأدبار تاركين ديارهم وأبنائهم، فطلبوا من نبي لهم أن يختار رجل يملكونه عليهم حتى يقودهم في قتالهم في سبيل الله حتى يستردوا ديارهم وأبنائهم، فحذرهم نبيهم من أن هذا يعني أن يفرض الله عليكم القتال، وعندما يتحول القتال من اختيار إلي فرض، فتركه عمداً سيصبح معصية كبيرة، ولسابق علمه بأخلاقهم وضعف إرادتهم، عرض عليهم تخوفه من أن يكتب عليهم القتال فلا يقاتلوا، وكان ردهم باستنكار لقوله هذا، وقالوا وما الذي يمنعنا عن القتال، وقد طردنا من ديارنا وتركنا أبناءنا، كان ردهم يعني أن رغبتهم في الحياة في أدنى درجاتها، ذلك أن حب الحياة يضعف عند الشعور بالذل والتهجير القسري وفقد الأبناء.

ثم ماذا حدث منهم بعد سردهم لهذه الأسباب المنطقية للرغبة في القتال في سبيل الله لاسترداد ديارهم وأبنائهم، معظمهم نكثوا عن كل وعودهم، استسلموا لرغبتهم في الحياة حتى وهي في أدنى درجاتها وأسوأ صورها، حياة ذليلة مطرودين فيها من أوطانهم، محرومين فيها من أولادهم، ثم يعقب رب العالمين بأنه علم بهؤلاء الظالمين لأنفسهم، فهم ظلموا أنفسهم عندما أعرضوا عن القتال من أجل استرداد ديارهم، وظلموا أنفسهم بقبولهم لهذا الذل وهذه المهانة، وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لعباده المؤمنين.

ثم يقول تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾}

استجاب لهم نبيهم وصدقهم، فسأل الله تعالى أن يده على من يصلح أن يكون ملكاً مقاتلاً، فده على رجل منهم اسمه "طالوت"، فبدأ الجدل الذي دلنا على سبب ما هم فيه من جبن وذلة، وترك لديارهم وأبنائهم فرحاً وخوفاً، إنهم أهل دنيا، يحبونها ويفضلونها ويعملون لها، ومن كان كذلك، فالحفاظ على الحياة لديه، أي حياة، هو مقياس النجاح، لذلك كان معيارهم في قياس الأحسن والأفضل، المستحق للقيادة، أصحاب المال والجاه والسلطة، قالوا اعتراضاً على هذا الاختيار: أنى يكون له الملك!! كيف يعين هذا الشخص ملكاً!! لماذا هذا الاعتراض؟ أولاً لأنهم أحق بهذه المكانة العالية منه، يرون أن أحداً منهم وهم الأشراف أصحاب السلطة والنفوذ، الأحق بهذه المكانة، ثم إنه ثانياً لم يؤت سعة من المال، يعني فقير!!، لم يذكروا معياراً ربانياً واحداً، كلها دنيا.

فردهم نبيهم إلى أنه اختيار الله تعالى، وأنه هو من اصطفاه عليهم، ورزقه زيادة في العلم والجسم، يقول ابن عطية في تفسيره "بين لهم تعليل اصطفائه طالوت، وأنه زاده بسطة في العلم، وهو ملاك الإنسان - أي أمر بيده يمكنه تحصيله -، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء." فزيادة العلم من عمله وجمده في تحصيل العلم، فهو من تعلم وثابر ودرس، وأعتقد كذلك أنه أحسن فيما رزقه الله تعالى من بسطة في الجسم، فحافظ على التدريب على القتال والمواجهات، فأصبح أهلاً لأن يكون القائد. ثم ردهم مره أخرى لصفات الله تعالى من أنه يؤتي ملكه من يشاء، وهنا من يشاء تعني مشيئة الله تعالى، وكذلك مشيئة العباد، فمن يشاء من عباده أن يؤتي الملك، فسيؤتيه الله الملك، والملك هنا ينصب أولاً على ملك النفس والهوى مما يعينه على تحقيق مراد الله تعالى، فيأتيه ما شاء وعمل له من أمور الدنيا والآخرة. وأنه سبحانه واسع عليم، واسع هنا تعني أن له أن يختار من ملكه الواسع ما يشاء، وهو عليم العلم الكامل الذي يجعله يختار عن علم وحكمة.

ويقول تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾}.

مازال نبيهم يبين لهم صفات هذا الذي اختاره الله تعالى ملكاً مقاتلاً لهم، ومازال يحاول اقناعهم بمن اختاره الله تعالى لهم، فأخبرهم أن علامة استحقاقه للملك، أن التابوت وهو صندوق خاص وضعت به التوراة كان مغتصباً من أعدائهم، ثم عاد إليهم حين اختيار طالوت ملكاً، ويرجع هذا التابوت، ستعود لكم السكينة والطمأنينة التي فقدوها بخروجهم من ديارهم فرعين، فالتوراة كما أنزلها الله عز وجل، إذا قرأها الإنسان امتلاً قلبه سكينة واطمئناناً، كذلك فإن هذا التابوت به بقية من آثار آل موسى وآل هارون، وهذا التابوت يأتيكم تحمله الملائكة.

نرى هنا فضل الله تعالى على الناس، إنه يسوق لهم كل الدلائل التي تعينهم على الإيمان والتصديق به تعالى وبما يقول، أختار لهم الملك القائد، وأعلمهم سبب اختياره، ثم أكد على هذا الاختيار بعلامات مادية مثل رجوع التابوت لهم تحمله الملائكة. بالرغم من استغنائهم عن إيمان كل الناس، إلا أنه وهو الملك العظيم القادر، حريص على إيمانهم بكل الطرق لكي يحيوا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وهكذا يفعل الله تعالى مع كل فرد منا، ذلك من فضل الله على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، لذلك عقب نبيهم على نعمة الله تعالى عليهم بما ساقه إليهم من الدلائل بقوله " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ".

ثم يخبرنا ربنا بالامتحان الذي أتى بعد كل هذه الدلائل لكي يظهر الإيمان الحق بما قال وبما وعد، يقول تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۗ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاَؤُاَ اللَّهِ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ ۗ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ يَأْذُنُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾}

تحرك طالوت بجنوده لملاقاة عدوهم الذي أخرجهم من بلادهم وديارهم، وهو عدو قوي مقاتل، لن يصمد أمامه إلا قوى الإيمان والإرادة، لذلك عرضهم لابتلاء واختبار يمتحن به قوة إرادتهم ورغبتهم الحقيقية في البذل والصبر، أعلمهم أنه سيقابلهم في سيرهم نهر، وبين أنه امتحان لهم، فمن شرب منه كما يريد، فهذا لا يصلح لملاقاة عدو شديد البأس في حاجة لمن لديه إرادة وعزيمة حتى يهزمه، فهذا لن يكمل معه المسيرة. أما من وصل لهذا النهر لكنه على عطشه لم يأخذ إلا مقدار غرفة باليد كما أمر القائد، فهذا هو الذي يمكن الاعتماد عليه في الصمود أمام عدوهم. فشرّب معظمهم، ولم يبق في الجيش إلا القليل الذين نجحوا في امتحان الصمود أمام رغبات النفس.

ثم أكمل القائد وجنده المختارين المسير حتى أصبحوا أمام جيش الأعداء، فرأوا جيشاً عظيم العدد والعتاد، فدخل الخوف قلوب فئة منهم وقالوا لن نستطيع مواجهة هؤلاء، فإذا بالذين هم على درجة أعلى من اليقين بوعد الله تعالى وبأنهم ملاقوه وبأنه سيسألهم عن تصديقهم لوعوده، ذكروهم بما وعد الله تعالى به، أن الفئة القليلة المؤمنة قادرة على هزيمة الكثرة الكافرة، وذلك بإذنه تعالى، الذي يأذن بالنصر لمن حقق أسبابه وعلى رأسها حسن الصبر على كل الصعاب التي تواجه المؤمن من أجل استرداد أرضه وكرامته.

وقال المفسرون أن هذه الكلمة شدت من أزر الخائفين ودخلوا جميعاً المعركة، ووقفوا أمام هذا المنظر المهيب المخيف، فاستعانوا بالله تعالى وهم على أرض المعركة وقد هزموا هواهم عند الماء، وهزموا خوفهم عند اللقاء، فدعوا الله تعالى أن يفرغ عليهم الصبر الكثير، ويعينهم ويثبت أقدامهم، فالثبات في المعركة وعدم الفرار من أهم أسباب النصر.

فكانت النتيجة لكل هذه الأفعال وهذا الإقدام وهذه الشجاعة، يقول تعالى: **{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} وَأُولَئِكَ دَفَعَاللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّتَسَدَّتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾** **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾**

فهزمت الفئة المؤمنة القليلة الكثرة الكافرة المعتدية الظالمة، فالله تعالى يأذن بالنصر لمن يحقق مشيئته ويصدق وعوده ويوقن بمعونته، وفي التفسير أن داود كان فتى صغير السن، وكان من قبل راعي غنم أبيه، وكان ذا شجاعة ونشاط وحسن سميت، وله نبوغ في رمي المقلاع، وكان مع جيش طالوت وخرج زعيم من زعماء العدو اسمه جالوت، فلم يستطع أحد مبارزته فانبرى له داود ورماه بالمقلاع فأصاب الحجر جبهته وأسقطه إلى الأرض ثم اعتلاه واختطف سيفه وقطع رأسه، هذه الشخصية الفذة التي على الرغم من صغر سنها أقدمت على مواجهة القائد القوي المخيف، لا بد أنه له سابقة إيمان وتقوى، وبذل المجهود في سبيل التمكن من سلاحه، فهو يتميز بسلامة الباطن وقوة الظاهر، لذلك رزقه رب العالمين أفضل العطايا، **"وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ"**، آتاه الله الملك، فأصبح ملكاً على بني إسرائيل، وآتاه الحكمة وعلمه مما يشاء، فالله تعالى آتاه الحكمة والعلم لأنه بذل في سبيل تحصيل العلم فاتاه العلم، وعَمِلَ بما عَلَّمَهُ، فرزقه الحكمة.

" **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** " ولولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، وعمها الخراب لأن أهل الفساد إذا تركزوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد في الأرض.

والله تعالى صاحب فضل عظيم، وإنعام كبير على الناس أجمعين، لأنه وضع لهم هذا التنظيم الحكيم الذي أوجب فيه على المصلحين أن يدفعوا المفسدين، وأن يقاوموهم بالطريقة التي تمنع فسادهم.

" **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** " هذا الهدف من القصص القرآني، يتلوها الله تعالى علينا لتخبرنا بالحق الذي يرتضيه، ومن الحق أنك من المرسلين، هذه الآيات يتلوها الله علينا لنتعظ بما فيها من دروس وأمثلة، لتتعلم كيف يكون النجاح في امتحانات الأقدار، وكيف يكون السقوط أيضاً.

### الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها:

في المثال الذي ضربه رب العالمين للذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، لقد استقبل هؤلاء ابتلاء وقد هجم الأعداء عليهم، بأن فروا من ديارهم - بالرغم من عددهم الكبير- خوفاً من الموت، فالدفاع عن أرضهم وديارهم قد يكلفهم أرواحهم، لذلك آثروا الفرار وتركوها للعدو.

هذا استقبال سيئ لابتلاء مواجهة من يعتدي علينا ليسلبنا حقوقنا، لأنه يعني ما وراءه من عدم اليقين بالله تعالى وبأحكامه وبوعده ووعيده، فالفشل يأتي عندما نخشى في الحق غير الله تعالى، الفشل يأتي عندما نعتقد أننا يمكن أن نحى أنفسنا من الموت عندما نجبن عن مواجهة العدو، الفشل يأتي عندما يكون هنما الحياة فقط بأي صورة كانت، وقد وجه رسول الله عليه الصلاة والسلام المسلمين نحو الدفاع عما يملكونه بكل الطرق الممكنة حتى لو وصل الأمر للقتال في سبيل ذلك، وجعل جزاء من يقتل في سبيل ذلك كجزاء الشهداء، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: " مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ". قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. رواه الترمذي.

وقد بين لنا ربنا كيف النجاح في مثل هذه المواقف، فإذا أردنا أن ننجح في هذا الابتلاء، فكيف سيكون استقبالنا له؟ إذا كنا ألوفاً بمعنى عدد كبير وهذا مصدر من مصادر القوة، فلا يجب أن نترك ديارنا للمعتدين، نستعين بالله تعالى ونصمد فيها ونقاتل المعتدي دفاعاً عنها، نقاتل من خلال الخطة التي وضعها لنا رب العالمين في قصة بني إسرائيل وهي:

- (١) وجود الرغبة والتصميم والإرادة من أجل مواجهة المعتدي.
- (٢) يكون الناس على قلب رجل واحد لاتخاذ قائد شريف قوي أمين، فلا يفلح أبداً اتخاذ قادة من أهل الدنيا، أولئك الذين لا يريدون القتال إلا للحصول على مكاسب وسلطات دنيوية.
- (٣) اظهار الإرادة والتصميم عند كل امتحان يتعرض له الجنود فيما قبل المعركة.

٤) الإنفاق في سبيل الله، يجب على أهل البلد الإنفاق في كل الأوجه التي تقوى الجبهة الداخلية وتوحد الصفوف.  
٥) الثبات عند مواجهة العدو وحسن التوكل على الله.

ولا نخرج أبداً من أرضنا خوفاً من الموت، فلا يملك الموت والحياة إلا رب العالمين، ولا يملك الرزق والعطاء والمنع إلا رب العالمين، قد نخرج لإعداد خطة للرجوع واسترداد ديارنا، لكن لا نخرج أبداً خوفاً من الموت، فالناس تموت بسبب وبدون سبب، ولا يحيا أطيب حياة في الدنيا والآخرة إلا من أطاع الله تعالى ولم يرض بحياة الذل والمهانة وضياع الحقوق.

### أما في القصة التفصيلية عن بني إسرائيل، فيمكننا أن نتعرف على مواطن النجاح والفشل فيها:

١) نجح في ابتلاء اعتداء العدو وطردهم من ديارهم، أولئك الذين طلبوا من نبيهم ملكاً مقاتلاً ليكون قائداً لهم يقودهم لقتال من أخرجهم من ديارهم وأبنائهم، بالرغم من خروجهم أو هروبهم، إلا أنهم لم يقبلوا الاستمرار في هذا الوضع المشين، فطلبوا الخروج منه من خلال الانخراط في حملة عسكرية لتحرير بلادهم، هذا هو رد الفعل الذي يحبه الله تعالى ويرضاه لمن تعرض لهذا الظلم واضطر لترك بلده.

٢) سقط في ابتلاء تحقيق معايير الله تعالى عند الاختيار، من اعترض على من اختاره الله تعالى لأنه ليس من أصحاب الجاه والسلطة وليس من أصحاب المال، هؤلاء لم يتعلموا أو لم يصدقوا أن ما يضعه الله تعالى من معايير عند الاختيارات المختلفة في الحياة هي أحسن معايير وتؤدي لأحسن نتيجة وأطيب حياة، فهناك معايير ربانية عند اختيار الزوج، وعند اختيار العمل، وعند اختيار السكن، وعند اختيار مدارس الأبناء... وهكذا، ينجح من يختار بناءً عليها، ويفشل من يختار بناءً على هواه ورغباته وكلام الناس.

٣) يرسل الله تعالى للناس الامتحانات لتظهر حقيقة ما بداخل كل إنسان، وقد قدر لهم النهر أمامهم لا يحتاج الواحد منهم إلا أن يمد إليه يده ليشرب، لكنه قدر ألا يشرب منه الجنود إلا بقدر غرفة اليد، لاختبار قوة الإرادة والصبر والصمود أمام الإغراءات، وذلك لأهمية هذه الصفة في أرض المعركة، وهذا يدل على أن الله تعالى لا يقدر هذه الاختبارات إلا لهدف ولتحقق مصلحة، وليس المقصود منها التضييق على الإنسان أو إيلامه، لكن المقصود أن ينظر الإنسان إلي رد فعله فيعالجه إن كان به خطأ، فيترقى دائماً في أخلاقه وصفاته.

وقد كان نتيجة هذا الامتحان أن شرب معظم الجنود أكثر مما قُدر لهم، أثبتوا عدم قدرتهم على الصمود، وبالتالي فهم لا يصلحون لخوض المعركة الحاسمة القادمة، فهؤلاء عبء على الجيش وليسوا بمعينين، فالقتال في سبيل الله دفاعاً عن الوطن في حاجة لنوعية راقية من البشر.

وأعتقد أن من سقط في امتحان النهر وشرب، هو من وضع معايير دنيوية عند اختيار القائد واعترض على اختيار الله تعالى. فيجب أن نتبه لاختبار وراء الآخر، فالنجاح فيها يعني سلسلة من النجاحات القادمة، والفشل - بدون المراجعة والتوبة - يعني سلسلة أخرى من الفشل المتتالي.

- (٤) من حسن فهم الأقدار وحسن استقبالها، أن يعرف المؤمن أنه إذا أصابه قدر فيه شدة، فإن الطريق مازال مفتوح أمامه ويمكنه تخطي الشدة وتحويلها إلى نعمة إذا استعان بالله تعالى وأخلص النية وعمل عملاً يصلح ما أحدثه من أخطاء. فالطائفة المؤمنة من بني إسرائيل تحولوا من مهزومين مطرودين إلى مقاتلين منتصرين لما أحسنوا استقبال قدر الله بالهزيمة والطرْد، فالتفوا حول قائدهم وأخلصوا نيتهم في القتال في سبيل الله، فأبدل الله هزيمتهم نصراً مؤزراً.
- (٥) حتى أصغر الأفراد إذا اجتمعت لديهم الشجاعة والإيمان والعلم، يستطيعون تغيير مجرى الأحداث.

هذه القصة، بهذا الأسلوب، لا تُعد مجرد حدث تاريخي، بل درس حي لكل من يريد أن يفهم الحياة ويدرك كيف يواجه أقدار الله بوعي وشجاعة، وكيف يتحول الابتلاء إلى نعمة، والهزيمة إلى انتصار إذا أخلص المؤمن نيته وتوكل على الله.

# قصة المنسلخ من آيات الله

يقول تعالى: **وَإِذْ عَلَّمْنَا نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾** وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرِكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ الأعراف.

هذه أقصر قصة وأكملها، تحمل كل عناصر القصة، لكنها غاية في الاختصار مع الوضوح الكامل، قصة رجل آتاه الله تعالى آياته (العلم)، فتركها عامداً متعمداً، فنتبع الشيطان خطاه حتى يهلكه، فأهلكه، فأصبح من الذين انقادوا لهوهم وامعنوا في الضلال، ويقول ربنا: لو شئنا (لو أراد العبد الرفعة، لسمحت مشيئة الله له بالرفعة) لرفعناه بهذه الآيات، لكنه اختار مُتَع الأرض فقط، فمثله كمثل الكلب، في حالة لهث دائم للحصول على متعه الأرضية وأهوائه، هكذا كل من كذب بآيات الله تعالى، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون في أحداثها ومآلاتها.

تفسير الآيات:

**(آيَاتِنَا آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا)** هنا المفسرون فسروا "آيَاتِنَا آيَاتِنَا" على وجهين،

الأول: أنه رجل تعلم العلم ودرسه واستوعبه بحيث عرف آيات الله تعالى ومراده وكتبه وشريعته...

الثاني: أنها آيات الله تعالى في الكون، التي هي آيات الله تعالى البينة لكل إنسان.

يقول د. راتب النابلسي: (أيما تحركت، أيما توجهت، كيفما فعلت، أيما أقيمت، الآيات الدالة على عظمة الله محيطية بك، استيقظت أشرق الشمس، الشمس آية، جاء المطر، المطر آية، هبّ الريح، الريح آية، شربت كأس الماء، الماء آية، جلست إلى طعام الفطور الخبز آية، اللبن آية، الحليب آية، تناولت طعام الغداء، الخضراوات آية، اللحم آية، يعني أيما تحركت استنشقت الهواء، سمعت صوتاً، شممت رائحة، رأيت شيئاً، تحسست شيئاً، أية حركة، وأية سكنة في حياتك هي آيات دالة على عظمة الله، آتاه كل إنسان.

الله معنا لكنه لطيف، يعني اللطف له آيات، الجمال انظر إلى وردة، انظر إلى فراشة، انظر إلى عصفور، هناك ألوان تأخذ بالألباب، اسم الجميل يتجلى الله به على بعض الأماكن، وعلى بعض الأشخاص، وعلى بعض الكائنات، وعلى بعض النباتات، اسم الجميل تراه رأي العين، اسم الحكيم، اسم القدير، اسم الغني، اسم الرحيم، اسم اللطيف، الآيات الكونية والتكوينية، الكونية خلقه، والتكوينية أفعاله، والقرآنية كلامه، الآيات الكونية والتكوينية والقرآنية محيطية بك كما يحيط بك جلدك.)

فهذا إنسان آتاه الله تعالى آياته وعرفها له وأحاطت به، لكنه (فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا) انسلخ من ثيابه: تجرد وانكشف، انسلخت الحية من جلدها: خرجت منه وطرحته.

انسلخ من آيات الله تعالى، الآيات كانت كطبقة الجلد عليه، قريبة منه جداً ومحيطة به، لكنه انسلخ منها، خرج منها رويداً رويداً، خطوة خطوة، حتى تعرى منها تماماً، حتى لم يعد يلاحظها أو يعرفها أو يطبقها، لم تعد تشغل أي حيز في حياته ولا في قراراته، كالحية التي تنسلخ عن جلدها ثم تتركه وتمضي.

فماذا حدث بعد هذا الانسلاخ عن آيات الله تعالى، (فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ)، أَتَّبَعَ الشَّيْءَ شَيْئًا: جعله تابعاً له، وألحقه به، أي أن الشيطان جعله تابعاً له وهيمن عليه وسخره لما فيه هلاكه، بهذا انسلخ هو من دينه ومن آيات الله، فأغرى الشيطان باتخاذهُ تابعاً حتى يدعوه دائماً إلى التصرف الأكثر فحشاً ومعصيةً وبعداً عن الله تعالى. فكانت النتيجة أنه أصبح من الغاوين الممعنين في الضلال، وهكذا حُتِّمَت هذه القصة المؤلمة بأسوأ مصير لإنسان.

ثم نأتي لتعليق رب العالمين على حالة هذا الإنسان وما فعله والدرس الذي يريدنا أن نتعلمه.

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)، لو شاء الله تعالى وأراد أن يرفعه بهذه الآيات التي هي كل ما شرعه الله تعالى لهداية البشر من عمل صالح وقيم وأخلاق ومعاملات، لو اهتدى يهديه سبحانه لرفعه، أي لحصل على ما يريده من طيب الحياة والتمتع بما فيها مما أحله الله تعالى.

يقول د. النابلسي: (يعني الدنيا حيادية، الشهوة حيادية، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليين، والشهوة نفسها يمكن أن تكون دركات تهوي بها إلى أسفل سافلين).

المال حيادي، إن كسبته من حلال وأنفقته في حلال من نعم الله الكبرى، والمال أكبر نعمة إن كسبته من حرام وأنفقته في حرام، سيكون أحد أسباب دخول النار، المال نفسه كصفيحة البنزين، إن وضعت في المستودعات المحكمة، وسالت في الأنابيب المحكمة، وانفجرت في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب ولدت حركة ناعمة، أما إذا صُبت على المركبة، وأصابتها شرارة أحرقت المركبة ومن فيها، هذه الشهوة، سبب لرقيك، سبب لدمارك، حيادية، أنت مخير.

شهوة اكتساب المال، شهوة النساء، شهوة الأولاد، شهوة التملك... كل الشهوات التي أودعها رب العالمين بالإنسان، يمكنه أن يأخذ منها خطأً بالحلال، فيرتقي عند الله تعالى، يقول تعالى: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ صَغِيرٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾) سبأ.

لكن ماذا فعل هذا البائس صاحب هذه القصة، (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أخلد إلى الأرض، أصبح تحصيل المتع التي على الأرض هي أقصى أمانيه، لم يطلب الآخرة ويعمل لها، لم يتطلع إلى السماء وإلى العلو والرقى عند الله تعالى، واتبع هواه في صورة تحصيلها، فأكتسب المال بالحرام، وأشبع رغبته بالزنا، وحصل على ما يريد بالكذب والسرقة والتدليس وشهادة الزور.....

كيف عاش حياته هذا التعيس؟، (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ)، الكلب من خصائصه يتنفس بسرعة، ولسانه يخرج من فمه أثناء التنفس، وتتراوح سرعة التنفس الطبيعية عند الكلاب بين ١٥ إلى ٣٥ نفساً في الدقيقة الواحدة وذلك أثناء فترة الراحة، بينما تزداد عند اللعب وقد تصل إلى ٤٠ نفس في الدقيقة، بينما معدل التنفس الطبيعي للبشر ما يقارب ١٢-٢٠ نفس في الدقيقة الواحدة. هذا يدل على أن الكلاب تلهث وتنفس بسرعة طوال الوقت.

وجه الشبهة بالكلب أن هذا الإنسان دائماً على حالة واحدة من الشكوى فهو لا يرضى أبداً عما هو فيه، وفي حالة لهات دائم الزيادة من الدنيا. بينما المؤمن تتغير أحواله، يسعى في الكسب، ويسعى في سعادته وأهله، ويسعى في أعمال صالحة، يحمد الله، يكتفي وقد يهدأ للحصول على بعض الخلوة والتفكير، وهكذا، ينتقل من حال لحال لأنه ليس عبداً للدنيا ولا للمال، بل ينتقل تبعاً لما يرضي الله تعالى، وتبعاً لما يحقق له راحة البال وهدوء النفس والقلب.

ثم يعلق رب العالمين على هذه القصة: **ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾** هذا مثل لكل من كذب بآيات الله تعالى فطمسها وتناساها ورفضها، كل من رأى أو سمع آية من آيات الله تعالى فانسأ منها كأنه لم يراها ولا يريد أن يراها، فقد تشبه بمن كذب بآياته سبحانه. لذلك يقص علينا ربنا هذه القصص لعلنا نتفكر ونعقل وتندبر في آياته فنحوز الرفعة في الدنيا والآخرة.

ونجد في سورة الزخرف تفصيل لمثل حالة هذا الإنسان، يقول تعالى: **(وَمَنْ يَعْمُرْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيصُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيُصِدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: (فَأَسْتَمْسِكُ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾).**

" **يَعْمُرْ** "، أي أن الإنسان لم ير حقيقة الشيء لا لضعف في بصره، ولكن لرغبته في ألا يرى، أي يتعالم، يتعاشى، يُعرض بنفسه عن أن يرى، إنه يتعالم عن رؤية آيات الله تعالى، يتعالم عن الموعظة، يتصام عن سماع الحق، يُعطل فكره. من يكن كذلك، فالله تعالى يعطيه ما يريد، فيقيض له شيطاناً فيصبح كالقرين له المصاحب، كما في قصتنا، فأتبعه الشيطان، ماذا يفعل معه الشيطان، يصدّه عن سبيل الله بالكلام المعسول والادعاءات الكاذبة والوعود الوهمية، ويمنيه في نفس الوقت بأنه من المهتدين، حتى إذا جاء عند الحساب، رأى الحقيقة، ورأى نتائج أعماله السيئة، علم أنه كان بئس القرين. فما الذي ينقذنا من هذا المصير، استمسك بالذي أُوحي إليك، وأعلم أنك لما تتبع ما يحبه الله تعالى ويرضاه، فإنك على صراط مستقيم يحميك من الانزلاق نحو هاوية من ابتعد وتعاشى عن آيات الله تعالى.

#### الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها:

**أولاً:** قدر الله تعالى لنا آياته في الكون وفي قرآنه، وإن أحسن استقبال لآيات الله تعالى قبولها والتفاعل السليم معها بالتفكير والتدبر ومعرفة صفات الله تعالى من خلالها، يقول تعالى: **(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا غَمًّا وَعُمَمَانًا ﴿٧٣﴾)** الفرقان.

نفهم هذه الآية الكريمة من خلال تفسير كلمة " **يَخْرُجُوا** "، يقال للماء الذي جَرى التفسير الأول: جَرِيًا شديدًا: خَرَّ يَخْرُجُ، فالمعنى أنه من صفات المؤمنين أنهم إذا رأوا أو قرؤوا أو ذكروا بآية من آيات الله تعالى الكونية أو القرآنية، لم يسارعوا بالمرور كأنهم ماء سريع الجريان، بلا فهم كأنهم صم لا يسمعون، وبلا رؤية كأنهم عميان لا يرون، بل يتأنون فيتفكرون ويعقلون ويتدبرون، وينتج كل تدبر وتفكر زيادة في الإيمان بالله تعالى وشرعه ووعده ووعوده.

يقول تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾) آل عمران

فكانت نتيجة تفكيرهم أن ازدادت أعمالهم الصالحة، (فاستجاب لهم ربهم أي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض..)

هذه هي الاستجابة السليمة الناجمة لرؤية آيات الله تعالى في الكون وفي قرآته، العمل الصالح، أما الاستجابة الفاشلة، فهي المرور عليها كأنه أصم لا يسمع وأعمى لا يرى، وهذا ما فعله صاحب هذه القصة، فأدى به لهذه النهاية البائسة.

**ثانياً:** أهواء الإنسان من أقدار الله تعالى التي يمتحنه بها، وجعل لكل هوى طريقاً صحيحاً للحصول عليها واشباع الرغبة بها، هذا هو الاستقبال الناجح لأقدار الله تعالى، هذا هو الاستقبال الذي يرفع به المؤمن من درجاته عند الله تعالى.

أما الاستقبال الفاشل فهو التخبط في اشباع هذه الأهواء بغير ما أمر الله تعالى وسمح، يقول تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾) القصص. " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ " هذا يعني أن المؤمن لا يُجرم من الحصول على هواه لكن يمكن أن يحققه من خلال اتباعه هدى الله تعالى.

**ثالثاً:** إن من أقدار الله تعالى وامتحاناته للبشر وجود هذا العدو الخفي الذي يكيد للإنسان طوال الوقت، يقول تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾) فاطر.

لكن هذا العدو ذو الكيد، كيده ضعيف، (...إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾) النساء. لأنه لا يملك على وجه الحقيقة أي سلطان على الإنسان، (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾) إبراهيم.

لقد ذكر رب العالمين في قصة هذا التعيس أنه أولاً هو من خرج عن آيات الله وأحكامه، ثم ثانياً أتبعه الشيطان، فسلطان النفس أقوى من سلطان الشيطان، لكنه لما استجاب لنفسه وأهوائها أغرى الشيطان فجعله تابعاً له ليزيده غواية ويضمن هلاكه، فالشيطان يوسوس له عند نقاط ضعفه الناتجة عن معاصيه، ويدعوه للمزيد من المعاصي، فيستجيب من انسلخ عن آيات الله لأنه أصبح أضعف من مقاومة وسوسة الشيطان.

لذلك فإن كان الله تعالى قد قدر وجود الشيطان، فإن حسن استقبال هذا القدر يكون:

أولاً: بالعلم به والعمل الصالح والالتجاء لله والتوكل عليه، ومتابعة النفس وتربيتها وحسابها كي تقوى على مواجهة وساوس الشيطان وتمكن من صده.

ثانياً: بالوعي والإدراك لوجود الشيطان، وعدم اتباع خطواته، يقول تعالى: (وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾) الأعراف. وخطوات الشيطان تؤدي لا محالة للهلاك مهما كانت صغيرة، فالأكاذيب تبدأ صغيرة ثم يتحرى الإنسان الكذب حتى يوصم بأنه كذاب ويصبح مصيره النار، وكذلك السرقات، وكذلك المظالم....، وهكذا.

إذا النجاح في استقبال قدر الله تعالى بوجود الشيطان، أن يكون الإنسان عبداً لله تعالى، يتعرف عليه ويسير على هداه ويقوم أحكامه ويأمره وينتهي عما نهى عنه، يقول تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾) الحجر. وينتبه لخطوات الشيطان الذي يغويه ويزين له المعاصي ويثقل عليه العبادات. **رابعاً:** من حسن استقبال أقدار الله تعالى، أن يحرص المسلم أن يكون دائماً من الشاكرين، فلا يكون كالكلب الذي يلهث في جميع أحواله سواء كان في راحة أو شدة، سواء كان عطشاناً أو غير عطشان، لأنه هكذا يفعل الشيطان بأوليائه، تجدهم دائماً في حالة شكوى، في الفقر والغنى، في الصحة والمرض، في الفرح والحزن، في حالة لهات دائم لتكنيز الدنيا، في حالة خوف دائم من عدم تحصيلها أقصى تحصيل، في حالة حزن دائم على ما فاتهم منها، ولا تجد أكثرهم شاكرين، كما توعدهم الشيطان، فمثل هذا هو العوبة في يد الشيطان يفعل بها ما يشاء.

**وهنا ملحوظة** من المهم أن نتنبه لها، أن الله تعالى لما يشبهه هذا الذي انسلخ عن آيات الله بعد إذ جاءته بالكلب، فهذا ليس لإهانة الكلب أو التقليل من شأنه، فالله تعالى هو من خلقه على هذه الشاكلة، وهي أفضل خلقه له تؤدي الغرض من وجوده، فلم يكن الله تعالى ليثبه ما يفعله هذا الرجل بلهات الكلب قليلاً من الكلب، لكن قليلاً من شأن الرجل الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم وميزه بالعقل والنفس البشرية، ثم تراه يتشبه بالكلب فيما ينفع الكلب لكن يضره هو.

## الخاتمة

وهكذا نصل إلى ختام هذا الكتاب، وقد تبين لنا أن الأقدار لم تُذكر في القرآن لتحكي قصصًا للتسلية، ولا لتُروى أحداث الماضي فحسب، بل لتكون ميزانًا نزن به واقعنا، ونقيس عليه ما نمرّ به في حياتنا اليومية. لقد علمنا الله تعالى من خلال القصص القرآني أن القدر لا يفهم من لحظته الأولى، ولا يُقاس بظاهره، بل يُدرك بحسن الاستقبال، وبالبصيرة التي ترى ما وراء الحدث، وبالقلب الذي يوقن أن الله لا يقدر شيئًا عبثًا، ولا يقود عباده إلا إلى الخير، وإن طال الطريق.

إن رحلتنا في فهم الأقدار، لم تكن غايتها البحث عن إجاباتٍ نهائية لكل سؤال، ولا كشف الحكمة الكاملة لكل ابتلاء، وإنما كانت محاولة صادقة لإعادة ضبط نظرتنا إلى ما نمرّ به، وتصحيح علاقتنا بأقدار الله تعالى كما أرادها لنا ربنا، لا كما توهمناها بعقولٍ متعجلة أو قلوبٍ مثقلة بالألم.

لقد دلّنا القرآن الكريم، من خلال قصصه الحق، أن القدر ليس حدثًا عابرًا في حياة الإنسان، بل هو رسالة متجددة، وامتحان متكرر، ومرآة تعكس حقيقة ما في القلوب. فالحدث في ذاته قد يتشابه بين الناس، لكن النتائج تختلف اختلافًا كبيرًا باختلاف طريقة الاستقبال، وباختلاف مقدار اليقين، وحسن الظن بالله، وصدق التوجه إليه.

ورأينا بوضوح أن الأقدار لا تأتي لتُخبرنا عن منزلتنا عند الله، بقدر ما تكشف لنا عن كيفية تعاملنا معه سبحانه. فقد يكون الابتلاء رفعة، وقد تكون النعمة استدراجًا، وقد يكون المنع عين العطاء، وقد يكون التأخير عين الرحمة، وكل ذلك لا يُدرك إلا بنور الفهم، وبصيرة الإيمان.

وتأملنا من خلال القصص القرآني، وعلى رأسها قصة يوسف عليه السلام، كيف تتشابك الأقدار وتبدو في ظاهرها متناقضة، بينما هي في حقيقتها تسير وفق حكمة واحدة متكاملة. انتقال من الجبّ إلى القصر، ومن القصر إلى السجن، ومن السجن إلى التمكين، دون أن يفقد صاحبها يقينه، أو يتغير موقفه من الطاعة، أو يساوم على القيم. فكان السرّ دائمًا في كيفية التعامل مع القدر، لا في القدر ذاته. وكل مرحلة تحمل في طياتها إعدادًا لما بعدها، حتى وإن بدت قاسية أو مظلمة في لحظتها. فلم يكن السجن نهاية الطريق، ولا الظلم هزيمة، ولا الفقد خسارة مطلقة، بل كانت جميعها محطات لصناعة الإنسان الصالح القادر على حمل الأمانة. وهنا تتجلى حقيقة عظيمة: أن الله تعالى لا يتلي عباده ليكسرهم، وإنما ليصنع منهم قلوبًا أثقى، وعقولًا أوعى، وفؤوسًا أقرب إليه. فالابتلاء ليس دليل خذلان، كما أن العافية ليست دائمًا دليل رضا، وإنما العبرة كل العبرة بحال القلب عند نزول القضاء، والعمل الذي يختاره الإنسان في لحظة الامتحان.

إن أعظم ما يقدمه لنا فهم الأقدار هو تصحيح نظرتنا للحياة: فعلم أن الشدائد ليست علامة هوان، وأن النعم ليست دائمًا علامة رضا، وأن الامتحان قد يكون في المنع كما يكون في العطاء، وفي التأخير كما يكون في التعجيل.

إن فهم الأقدار يعلمنا ألا نقف طويلاً عند سؤال: لماذا حدث هذا؟

بل أن ننتقل سريعاً إلى السؤال الأهم: كيف أتعامل معه؟

كيف أرضي الله في هذا الظرف؟

كيف أخرج من هذا القدر أقرب إلى الله، لا أبعد عنه؟

وحين يستقر هذا الفهم في القلب، يتحوّل القدر من مصدر حيرة إلى باب طمأنينة، ومن سبب سخط إلى وسيلة قُرب، ويصبح المؤمن أكثر وعياً بحركته في الدنيا، وأكثر ثباتاً عند الابتلاء، وأكثر شكراً عند العطاء.

وليس المقصود من هذا الفهم إلغاء الألم، ولا إنكار الحزن، ولا الادعاء بالقوة الزائفة، بل المقصود أن نحيا الألم بوعي، ونحمل الحزن بإيمان، ونعبر الشدائد ونحن نعلم أن الله معنا، يسمع دعاءنا، ويرى صبرنا، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وفي النهاية، فإن فهم الأقدار ليس علماً يُحفظ، ولا كلمات تُقال، بل هو ممارسة يومية، تظهر في ردود أفعالنا، وفي اختياراتنا، وفي صبرنا عند الشدة، وشكرنا عند النعمة، وثباتنا عند الفتن، ويقيننا عند الغموض.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الفهم نوراً في القلوب، وبصيرة في مواجهة الأحداث، وأن يرزقنا حسن استقبال أقداره، والرضا بحكمه، واليقين بلطفه، وأن يجعلنا من الذين إذا ابتلوا صبروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا فهموا القدر أحسنوا العمل.

**وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**

## المراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. تفسير القرآن الكريم للدكتور راتب النابلسي.
٣. تفسير القرآن الكريم (التحرير والتنوير لأبن عاشور).
٤. تفسير الوسيط لسيد طنطاوي.
٥. تفسير ابن كثير.
٦. سنن أبي داوود.
٧. كتاب الإمام مسلم.
٨. جامع الترمذي.
٩. قاموس ومعجم المعاني.
١٠. القرآن نسخة شخصية. د. أحمد العمري.
١١. أسماء الله الحسنى. أسماء الشرقاوي.

## الفهرس:

١	المقدمة
٥	قصة سيدنا يوسف
٦	تفسير الآيات
٢٦	أولاً: الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم أقدار الله تعالى وذلك من خلال كل شخصية
٢٩	ثانياً: الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم أقدار الله تعالى وذلك من خلال آيات الله تعالى
٣١	قصة بقرة بني إسرائيل.
٣٢	(١) المجموعة الأولى "القصة"
٣٥	(٢) المجموعة الثانية "السبب"
٣٧	(٣) المجموعة الثالثة "النتيجة"
٣٨	الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها
٤٣	قصة الخلق
٤٤	تفسير الآيات
٥٣	الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها
٥٥	قصة ابني آدم
٥٦	تفسير الآيات
٥٧	الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها
٥٩	قصة الملاء من بني إسرائيل الذين طلبوا القتال لاسترداد أرضهم
٦٠	تفسير آيات القصة القصيرة
٦٣	تفسير آيات القصة التفصيلية لمعركة طالوت.
٦٦	الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها
٦٩	قصة المنسلخ من آيات الله تعالى

٧٠	تفسير الآيات
٧٢	الدروس المستفادة من هذه القصة في فهم الأقدار وسبل النجاح فيها
٧٥	الخاتمة
٧٧	المراجع
٧٨	الفهرس

---

يناير ٢٠٢٦